

الدكتور عيسى عبد الله

أحمد إسماعيل يحيى

حقيقة الإنسان

الكتاب الأول



دار المعارف

الدكتور عيسى عبده
أحمد إسماعيل يحيى

حقيقة الإنسان

الكتاب الأول
"فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ"
قرآن كريم

الطبعة الثانية



دار المعارف

فهرس الكتاب

صفحة

- إهداء ٧
- قالوا عن الإنسان ١١
- مقالة عن الإنسان « قصيدة مترجمة » ١٣
- مدخل : ١٥
- الإسلام دين يأمر بالمعرفة ويجعل التفكير فريضة ١٥
- والإنسان باحث عن المعرفة بفطرته ٢٠

الباب الأول :

- كيف بدأ الخلق ؟ ٢٩
- ما قبل خلق آدم ٣٢
- بدء المخلوقات وأوائل الكائنات الكلية ٣٤
- كيف وجد الإنسان ؟ ٤٨
- قصة الإنسان من الحفريات ٤٩
- تعليق ٥٣
- نظرية دارون ٥٤

صفحة

- تعليق ٥٥
- خلق الأرض والسموات ٥٦
- أيام الخلق الستة . . أيام أو مراحل ٥٨

الباب الثاني :

- أيها الإنسان من أنت ؟ ٦٥
- كلكم لآدم وآدم من تراب ٦٧
- فكرة خلق الإنسان عند بعض الأمم ٧٠
- بدء الإنسانية في مكة ٧٢
- قصة بداية الإنسان في القرآن ٧٥
- ذرية آدم ٨٤
- ما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً ٨٤
- ما هي الظلمات الثلاث ؟ ٨٦
- المراحل الثلاث ٨٧
- خلق الإنسان ٨٩

الباب الثالث :

- القرآن والتربية الجنسية ١١٩
- الزواج أحسن وسيلة للإنجاب ١٢٥
- الاختيار في الزواج ١٢٦
- الزواج بالأجنبيات ١٢٩

صفحة

- حديث القرآن عن الأزواج والزوجات ١٣٣
- الأسرة في التشريع الإسلامى ١٤٤
- طموح الأنبياء إلى البنين ١٥١

الباب الرابع :

- بدنك أكثر الآلات كمالاً وأحقها بالمعرفة ١٥٧
- عجائب جسم الإنسان ١٥٩
- أولاً : العظام ١٥٩
- ثانياً : العضلات ١٦١
- ثالثاً : المخ والجهاز العصبي المركزى ١٦٣
- رابعاً : القلب ومجرى الدم ١٦٥
- خامساً : الرئتان ١٦٦
- سادساً : الجهاز الهضمى ١٦٧
- سابعاً : الكبد والكليتان ١٦٨
- ثامناً : الجلد ١٦٩
- طفل الأنابيب ورأى علماء الإسلام ١٧٠

الباب الخامس :

- هذا الإنسان ملاك أو شيطان ؟ ١٧٣
- الإنسان ليس وحده في هذا العالم ١٧٧
- الملائكة ١٧٨

صفحة

- الجان ١٨٠
- الشياطين ١٨٢

الباب السادس :

- معجزة ميلاد المسيح ١٨٧
- ميلاد محمد رسول الله ١٨٩
- باب ما جاء فى خلق رسول الله ﷺ ١٩١
- حديث الرسول ﷺ فى وصف خلق بعض الأنبياء .. ١٩٤
- علة خلق الإنسان ١٩٤
- الإنسان الكامل ١٩٦
- خاتمة ٢١١
- المراجع ٢١٣

إهداء

إلى الإنسان .. فى كل زمان .. وفى كل مكان ..
رجلاً كان أو امرأة .. شاباً أو شابة .. صبيّاً أو صبية .. طفلاً أو طفلة ..
الأحمر والأبيض والأصفر والأسود ..
يدين بأى دين سماوى ..
أو يستعبده أى مذهب أرضى ..
يعلم أو يجهل ..
يستخدم عقله ويستهدى بفؤاده ..
أو تستعبده شهواته وتستذله نزواته ..
ينشد الخلود أو يرسف فى قيود الوجود ..
إلى هذا الإنسان ..
نهدى هذا الشعاع من النور ..
ليكشف له عن حقيقته ..
أو حقيقة بدنه .. وروحه .. ونفسه ..

المؤلفان

الجزيرة فى ١٩/١/١٩٨١ م
الموافق ٣ ربيع الأول ١٤٠١ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً * إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً * إنا هديناه .
السييل إما شاكراً وإما كفوراً) .

(الإنسان آيات ١ - ٣)

قالوا عن الإنسان

- الإنسان حشرة حقيرة ودودة قذرة .

« سارتر »

- الإنسان قرد خلقه الخالق ليتلهى به في أبديته الطويلة .

« نيتشه »

- الإنسان عملة اقتصادية في سوق الصناعة والتجارة تعلق وتهبط في طبقاتها بمقياس العرض والطلب وصفقات الرواج والكساد .

« الماديون »

- « الإنسانية شيء لا وجود له ووهم من أوهام الأذهان - والشيء الموجود حقاً هو الفرد الواحد .. وبرهان وجوده حقاً أن يفعل ما استطاع من نفع أو أذى كلما أمن المغبة من سائر الأفراد والأحداث » .

« العقليون »

- « الإنسان واحد من عنصر سيد أو مسود .. وأبناء الإنسانية جميعاً عبيد للعنصر السيد - والعنصر السيد قبل ذلك عبد للسيد المختار دون اختيار » .

« الفاشيون »

- « الإنسان روح وجسد .. دنيا وآخره .. ينجو شطره بمقدار ما يهلك شطره ويصح له الوجود بمقدار ما صح له من عقبي الفناء - وهو إنسانان : إنسان صحيح مقبول وإنسان زائف مدخول .. والإنسان قد يولد بذنب غيره .. وقد يموت بذنب غيره .. وقد يبرأ من الذنب بكفارة غيره وهو يمضي بين النعمة واللعنة بقدر من الأقدار .

« أهل العقائد الإلهية »

مقالة عن الإنسان

من قصيدة للشاعر الإنجليزي (إسكندر بوب)

(١٦٨٨ - ١٧٤٤ م)

اعرف إذن نفسك ولا تدع الإحاطة بعلم الله .
إن دراسة الإنسان المثلى .. هى الإنسان ،
قائماً على برزخه هذا من الحالة الوسطى ،
مخلوقاً عاقلاً فى ظلمة ، عظيماً فى خشونة ،
أعلم من أن يكون شكوكياً لا يدري ،
وأضعف من أن يكون رواقياً يصبر ،
معلقاً بين العمل والراحة ،
معلقاً بين الإلهية والبهيمية ،
معلقاً يتردد بين إثثار عقله أو بدنه ،
يولد .. ولكن يموت ..
ويعلم .. ولكن ليخطئ ..
يحيط به الجهل نقص علمه أو زاد ..
ويختلط أمره فى فوضى من الفكر والشهوة ..
وهو .. هو .. الذى يسىء إلى نفسه أو يتجنب الإساءة ..
مخلوقاً .. بعضه ليرتفع .. وبعضه لينحدر ..

سيدًا لجميع الأشياء ..
وفريسة لها جميعًا ..
وهو الحكيم الوحيد فيما هو حق أو باطل ..
ولكنه يضطرب في خطأ دائم ..
ولا يزال فخر الخليفة وسخرتها ..
ولغزها الغامض في آن .

مدخل

الإسلام دين يأمر بالمعرفة ويجعل التفكير فريضة

كانت كلمة (اقرأ) هي أول كلمة نزل بها جبريل رسولا من الله إلى محمد ﷺ : (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم .) الآيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ من سورة العلق .

والتدبر لمعانى هذه الآيات يدرك كيف أن كلمة (اقرأ) نزلت (أمراً) سابقاً لكل كلام .. ومدخل آية سابقة لكل الآيات .. ثم إنها كلمة نزلت مؤكدة باسم الرب (رب محمد) .. الله .. الذى خلق .. وهو اقتران كسبت به الكلمة تشريعاً فوق كل تشريف ..

ثم إن كلمة (اقرأ) تتكرر فى السورة مقترنة بصفات من صفات الله (الذى خلق - الأكرم ..) وهو تكرر واعٍ يليق بشرف القراءة وعظيم قدرها وواسع نفعها .. فسبحانك ربنا القائل وتعاليت فما تكرر الكلمة هنا محض تكرار ولا موقعها فى الآيات محض صدقة .. تعاليت وحاشا لك أن تكرر القول كما يكرره البشر من خلقتك يلقون الكلام على عواهنه .. وتترهت عن العفوية .. كل شيء عندك بمقدار .. فأنت الذى تؤتي الحكمة من تشاء من عبادك .. لذا كان البدء بكلمة اقرأ عدل منك بقدرها .. والأمر بها فريضة يرقى بها

الوجود إلى الخلود .. فما فضل القراءة في بناء الحضارات ، ورق الإنسان ،
بالشيء الذى يجرؤ على نكرانه أحد من خلقتك مها اختلفت الأجناس وتنوع
الملل .. إذ كيف كان للإنسان أن يعرف ما عرف في سالف العصر وحاضره لولا
قراءته لما كتبه الأولون أو رسموه أو خلقوه من نقوش على الأحجار والآثار ؟ بل
كيف يمكنه أن ينقل ما عرفه لمن خلفه بغير القراءة - والكتابة - ولعل مما يؤكد
فضل القراءة والكتابة ما جاء في كتب السلف المجتهدين بأن القلم كان أول ما
خلق الله من الخلق المعنوى .. وكيف التعليم والتعلم بغير قلم ؟ .

وإذا كان المعنى الذى تنصرف إليه كلمة (اقرأ) في هذه الآية هو (التلاوة
من الذاكرة) أى أن الرسول ﷺ : أمر أن يعى القرآن في صدره ثم يتلوه من
الذاكرة - فإن كلمة (اقرأ) في ذاتها .. لا تأبى أن تحمل معنى القراءة من
الصحف المكتوبة .. ويرغم أن المؤمنين كانوا يحفظون في صدورهم ما ينزل على
محمد ﷺ من القرآن أولاً بأول .. فقد كان الرسول ﷺ إذا تفهم القرآن
ووعى آياته بلغها للناس وأمر كاتباً من الكتاب أن يكتبها بين يديه إما على عسيب
(وهو جريد النخيل) وإما على لحف (وهو حجر رقيق) وإما على رقعة ..
وكان له كتاب معروفون يكتبون له .. ذكر بعضهم أن عددهم ستة وعشرون
وزاد البعض حتى قيل ! إنهم كانوا اثنين وأربعين منهم الذى لازمه ﷺ في جميع
أدواره التشريعية .. ومنهم من كان يكتب له مدة قلت أو كثرت ومن أشهرهم
الخلفاء الأربعة وعامر بن فهيرة وأبى بن كعب وثابت بن قيس بن شماس وزيد
ابن ثابت (وهو الذى كلفه أبو بكر بجمع القرآن المكتوب لدى المسلمين)
ومعاوية بن أبى سفيان وأخوه يزيد ..

وكان معاوية وزيد بن ثابت ملازمين للكتابة بين يدي رسول الله ﷺ في
الوحي وغيره لا عمل لهما غير ذلك .. وذكر غير هؤلاء كثيرون .. وكان هذا

المكتوب يوضع في بيت رسول الله ﷺ ويكتب الكتاب لأنفسهم منه صورة
ويدهم الرسول ﷺ على موضع ما يتزل من الآيات من سورته .. فكانت
حافضة الأمين وصحف الكاتبين والصحف التي في بيت الرسول ﷺ تتعاون
كلها على حفظ ما أنزل الله سبحانه وتعالى ، من آيات القرآن الدالة على ذلك :
(وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تحطه يمينك إذا لا رتاب
المبطلون) . . (الآية ٤٨ العنكبوت)

(سنقرئك فلا تنسى ، إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى) (٦ ، ٧
الأعلى) .

(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) (٩ الحجر) .
ولذلك لم يحدث للقرآن ما حدث للتوراة وما عداها من أسفار العهد القديم
التي وصلت إلى الناس بعد أن حرف فيها الكلم عن مواضعه .. كذلك لم يحدث
للقرآن ما حدث في الإنجيل الذي لم يدون في حياة السيد المسيح عليه السلام ..
وإنما قام بذلك من بعده تلاميذه ثم تلاميذهم من بعدهم .. ذلك أن الله
سبحانه وتعالى الذي نزل الذكر حفظه مما أصاب غيره .. وكان للقراءة والكتابة
في ذلك كما قلنا بدءاً فضلاً أى فضل . وإذا كانت القراءة تقتن في الأذهان
دائماً بالكتابة ، فإن فضل القراءة نجىء في أنها قد تكون تلاوة من الذاكرة
دون حاجة إلى صحائف مكتوبة ، في حين أن الكتابة لا تكون بغير أدواتها من
قلم وقرطاس .. أو حتى أزميل وحجر .. كذلك فإن حروف اسم القرآن (كتاب
الله الكريم) تتضمن حروف كلمة (اقرأ) وهو فضل جديد للكلمة يلبسها ثوباً
قشياً بين الكلمات .. فإذا علمنا أنها كلمة نزلت في ليلة القدر .. (ليلة القدر
خير من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ، سلام
هى حتى مطلع الفجر) لتأكد لنا ما قصدناه من بيان فضل الكلمة التي كانت

أول ما نزل من عند الله على خير عباد الله ، لكن الذى يزيد القراءة تشريعاً على تشريف أنها نزلت مقرونة باسم الله الذى خلق وباسم الله الأكرم .. رب الأرباب الذى شرع للإنسان شريعة قيمة مستقيمة تربيته خير تربية بما يجعله أهلاً للاستخلاف فى الأرض ليعمر الحياة ويعبد الله .. الله الذى خلق الإنسان من علق .. وعلمه البيان .. وهده إلى ذاته القدسية فكان الأمر بالقراءة مقترناً بأسمائه الحسنى .. فباسمك يا رحمن يا رحيم نبدأ كل عمل نريد له أن يكتمل .. فهكذا علمنا رسولك ﷺ أن تكون بداية كل عمل (بسم الله الرحمن الرحيم) .. حببها إلينا ويسرها علينا فأجاز للمحدث المحتاج للغسل أن يذكرها برغم أنه ممنوع من قراءة القرآن .. حتى لا يكون البدء بغير اسم الله .. وهكذا نزلت أول سورة من القرآن تعلمك لتقرأ أيها النبي باسم الله الذى خلق .. (خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم .) (الآيات ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ العلق) .

ولكن قد يسأل سائل لماذا تقدمت من أسماء الله صفة الخلق فنقول وبالله التوفيق : الحكمة فى ذلك واضحة جلية^(١) فالخلق فى كل مراحل تربيته من الرب .. منذ كان الإنسان نطفة تربت حتى كانت علقه .. تربت حتى أصبحت مضغة .. تربت حتى صارت عظاماً تربت حتى كسيت لحماً .. تربت حتى أنشأها الله سبحانه خلقاً آخر نفخ فيه من روحه ليستوى إنساناً .. (فتبارك الله أحسن الخالقين .) (١٤ المؤمنون) .

فالخلق صفة ينفرد بها الله وحده .. وكل ما عداه مخلوق .. هو وحده الذى يخلق من العدم ما يشاء ..

(هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء) . (٣ فاطر)

(١) تفسير سورة العلق - م. جمال الدين عياد .

(أفرأيت ما تمنون ، أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) . (٥٨ ، ٥٩ الواقعة)
(هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه) . (١١ لقمان)
(ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) . (٢٥ لقمان)
فهل بعد ما عرف الإنسان أن الله وحده هو الذى من نطفة خلقه فقدره ثم
السبيل يسره .. ثم أماته فأقبره .. ثم إذا شاء أنشره .. هل بعد ذلك يكون له
أن يقرأ إلا باسمه ؟

فباسمك يا ربنا نقرأ ما نزلت .. نقرؤه تلاوة محفوظة في صدورنا .. ونقرؤه
حروفاً جمعت في صحائف .. آياتك تملأ الآفاق .. ونراها في أنفسنا .. نتفكر
في خلق الإنسان وفي خلق السموات والأرض وخلق كل ما تظله أو تحمله
السموات والأرض .. نعمل السمع والبصر .. نعمل الحواس والعقل والفؤاد .
(إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مشغولا) (٣٦ الإسراء) .
(أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا
بالحق وأجل مسمى) (٨ الروم) .

(إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري
في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد
موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء
والأرض لآيات لقوم يعقلون) . (١٦٤ البقرة) .
ويقول سبحانه (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) .
(الأنفال) .

كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون (٣٢ الأعراف) .
هذا هو الإسلام الدين القيم .. يأمرنا بالمعروف ويفرض علينا التفكير ..
ويجعل أعمال العقل والنظر عبادة وديناً ..

والإنسان باحث عن المعرفة بفطرته

فأله الذى أبدع كل شيء صنعا .. حين خلق الإنسان فى أحسن تقويم .. زوده بأدوات التفكير والمعرفة والتعلم .. وخلق به فطرته باحثا مستطلعا متشوقا .. وجهزه لهذه المهمة بالحس لعالم الماديات .. وبالعقل للاستنتاج مما يأتي به الحس .. وبالروح البصيرة للإيمان بعالم الغيب فالإنسان ليس جسما كثيفا فحسب .. ولا هو عقلا هيواليا وكفى .. بل هو إنسان بروحه الشفافة وبصيرته المضيئة .. اجتمعت فى جسده أحاسيسه واصطخبت فى عقله أفكاره وورفت فى روحه مصابيح الإيمان التى تسمو به كل سماء .. فلو أن الله خلق الإنسان حسا فقط لكان بهيميا .. أو عقلا فقط لهوى إلى أسفل درك .. ذلك أن الحس والعقل لها حدود لا يمكنها اجتيازها .. إذ ليس فى طاقاتها أن يدركا إلا عالم الماديات والمحسوس لمسأ أو استنتاجا .. أما عالم الغيب وما يتصل به فهو مما يعجز العقل عن إدراك كنهه .. وعلى سبيل المثال فالعقل عاجز عن معرفة النفس الإنسانية التى لا تزال من أعقد مسائل العلم والفلسفة .. وعاجز أيضا عن معرفة حقيقة الضوء .. والضوء أظهر الأشياء وأوضحها .. يقول (كاميل فلاماريون) فى كتاب (القوى الطبيعية المجهولة) :

ترانا نفكر .. ولكن ما هو الفكر؟ لا يستطيع أحد أن يجيب عن هذا السؤال . ونحن نمشى ولكن ما هو العمل العضلى ؟ لا يعرف أحد ذلك .. أرى أن إرادتى قوة غير مادية .. وأن جميع خصائص نفسى غير مادية أيضا .. ومع ذلك فنى أردت أن أرفع ذراعى أرى أن إرادتى تحرك مادى .. فكيف يحدث ذلك ؟ وما هو الوسيط الذى يتوسط للقوى العقلية فى إنتاج نتيجة مادية ؟

لا يستطيع أن يخيّنني أحد عن هذا أيضًا .. بل قل لي كيف ينقل العصب البصرى صور الأشياء إلى العقل ؟ وقل لي كيف يدرك العقل هذا وأين مستقره ؟ وما هي طبيعة العمل الخفى ؟

قولوا لي أيها السادة (الملحدون) .. ولكن .. كفى كفى .. فإني أستطيع أن أسألكم عشر سنين ولا يستطيع صاحب أكبر رأس فيكم أن يجيب على أحقر أسئلتى .. و (كاميل فلامريون) بهذه الكلمات يقترب من الحقيقة بقدر ما يعتمد عن ضلالات الماديين فهو يكاد يصرخ فيهم : إن العقل إذا لم تصاحبه في مسيرته روح مؤمنة تثير له ظلمات دروبه .. وتربطه إلى السماء بخيوط الإيمان والنور والصفاء .. فإن العقل عندئذ يسقط سقطة كبرى .. يصبح فيها ملهارة .. فلا يكون له بغير الروح منجاة ..

وحين ننظر في أنفسنا نجد أن الله سبحانه وتعالى قد خلقنا مهينين لما نحن له وأنه سبحانه حين قال للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة .. بين لهم أن السيادة للإنسان على سائر المخلوقات بما حباه من خصائص وبما ميزه من ميزات .. ثم إنه علمه من علمه وهده من فضله .. وفصل له بين النور والظلام .. وبين الحق والباطل .. وبين الرشd والغى .. وأراه الآيات في الآفاق وفي نفسه .. ونزل عليه القرآن عساه يتدبر وضرب له الأمثال لعله يتفكر .. وأرسل له الأنبياء والرسل من بين بنى البشر عله يهتدى ويقتدى .. وسخر له ما في الأرض جميعاً .. وعقد له لواء الاستخلاف في الأرض .. وربي فيه جسده وعقله .. وروحه ونفسه .. ثم ترك فيه القرآن هادياً ومرشداً .. ، منهاجاً وبصيرة .. ، يرجع إليه تصحيحاً لمسيرته .. وردعاً لنفسه .. وزجراً لنواذعه .. ونوراً لدروبه ، فلا غرو أن يحىء القرآن لكل عصر ومصر .. عارفاً بما كان وما سيكون .. مدركاً لطبيعة الإنسان التزاع إلى البحث عن الغيب والجرى وراء

المجهول منذ وجد .. بدون كلل وبغير ملل . مقدراً في الإنسان أنه لا يركن إلى فكرة تروقه حتى يتحرك إلى غيرها .. وأنه كلما ارتقى درجة على سلم المعرفة .. تطلع إلى الدرجة التي تعلوها قافراً مع كل يوم جديد في اتجاه التطوير والتجويد ، منقباً عن الأسرار غائصة في الأغوار .. وهو في كل محاولة له ينجح في أن يتترع مفتاحاً لمغلق من مغاليق الكون المحيط به .. بقدر ما سعى وبقدر ما أراد الله له أن يعرف أو يتعلم ..

والإنسان بنظرته الباحثة هذه .. يريد لو استطاع أن يرفع الحجب عن عالم الغيب وصولاً إلى الله واتصالاً .. ملقياً بنفسه بعد النصب والتعب في المحيط الإلهي حيث تشف الروح وترف الأنوار وتسكن النفس المطمئنة .. ويزول عن البصيرة ما تراكم عليها من صدأ وينكشف الغطاء فالبصر حديد .

وتلك مرتبة لا يرقى الإنسان إليها بعقله وحده .. بل تصعد به إليها نفسه الزكية وروحه المتوثبة في مجالات الاتصال بالحقيقة المقدسة .

لذلك نجد الإسلام ينظر إلى الإنسان نظرة عارفة به .. عالمة بدقائقه .. فالإنسان في الإسلام سيد لكل المخلوقات .. نفخ الله فيه من روحه .. وخلقه في أحسن تقويم .. علمه الأسماء كلها وأمر الملائكة بالسجود له تكريماً وتفضيلاً .. (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون) . (٣٠ البقرة) .

(ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً) . (٧٠ الإسراء) .
لهذا كان كل ما في الكون مسخراً لنفع الإنسان وخيره . (الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر

لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار) . (٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ إبراهيم) .

هذا هو الإنسان فى القرآن^(١) وهو غير الإنسان فى الفلسفات الحديثة والمادية التى تنظر إليه نظرتها إلى المخلوقات الحقة الرضية : فالإنسان عند سارتر : (حشرة حقيرة ودودة قذرة) .

وهو عند نيتشه : (قرد خلقه الخالق ليتلهى به فى أبديته الطويلة)^(٢) وحاشى لله أن يخلق ليتلهى بخلق .. أما الإنسان .. فإنه لو كان بهذا الانحطاط . إذن .. لقنع بمطالب الدود والقرد .. وإذن لسيطرت عليه مطالب الجسد من طعام وشراب ومسكن ولباس وكفى ..

ولما تجاوز هذه المطالب فسعى إلى الترقى والتحضر ونزع إلى الجمال وعشق الحسن وبحث الأسرار .. ولما ظهر لنا بكماله فى القرآن .. بعقله المدرك ونفسه المطمئنة وروحه المتوبة النورانية .. بل لما كان أهلاً لحمل ثقل الأمانة وخلافة الله .

على أن الله سبحانه وتعالى لم يترك العقل المدرك فى القرآن مطلقاً بلا حدود بل زوده بما يقوم اعوجاجه إن شطح ويوجه تفكيره إن جنح .. وله من الكون

(١) الإنسان فى القرآن : عباس محمود العقاد .. مطبعة نهضة مصر .

(٢) وحاشى لله أن يخلق ليتلهى بخلق .. فاللهو من صفات المخلوقين أما الخالق جل وعلا فما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وهو سبحانه يرد على أمثال هؤلاء الملحدين (لو أردنا أن نتخذ لهمآ لآتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون) (الأنبياء) وبين الله سبحانه وتعالى لنا الغاية من الخلق فقال سبحانه (الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً) (الملك) .

المحيط به كتاب جلى الآيات فى كل الصفحات : (قل انظروا ماذا فى السموات
والأرض) (١٠١ يونس) .

(ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور) .
(٣ الملك)

(أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج .
والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة
وذكرى لكل عبد منيب .) (٦ ، ٧ ، ٨ ق) .

(ألم تر أن الله يزجى سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج
من خلاله .) (٤٣ النور) .

فلأمر ما كثر الله سبحانه آيات السير فى الأرض والنظر القرآنى لاستنطاق
آثارها واستطلاع أخبارها ، والبحث عن مكنون أسرارها .. مصحوبة بالتفكير
والاستدلال ليجىء الحكم على مقتضى ما تنطق به الآثار وتؤكد الأخبار
وتكشف عنه الأسرار .

ولسر ما جاء هذا الأمر فى القرآن ثلاث عشرة مرة نعى فى سبع منها على
السابقين إرسالهم الأحكام بغير حذر وبصردون سير ونظر ، وأمر سبحانه وتعالى
الإنسانية فى ست مرات أخرى أن يكون حكمهم صحيحاً مبنياً على البحث
والتنقيب والتفكير والاستدلال والتخريج .

فالإنسان مأمور بالنظر إلى الكون من حوله بكل ما هو مركب فيه من آيات
الإدراك وأدوات العلم والمعرفة (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه
مستولاً) . (٣٦ الإسراء) والكون ليس كتاباً مغلقاً لا يفتح إلا للعلماء
والحكماء .. وإنما هو صفحة يقرأها كل إنسان بقدر ما وسعت مداركه .. فإن لم
تدركها حواسه أسعفه عقله .. فإن لم يدركها عقله كلها .. أسعفه قواده ..

كذا .. فليقرأ الإنسان (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم) . (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ العلق) (وقرأ) هنا .. هى الدرب والمنهاج .. (وقل رب زدنى علماً) . (١١٤ طه) و(قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) . (٩ الزمر) لو كان لهما من استواء لما قال الرسول ﷺ : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » . ويقول ﷺ : « يؤتى بمداد طالب العلم ودم الشهداء يوم القيامة فيرجح مداد العلماء » .

فتكليف الإسلام لنا بالتعلم والبحث تأكيد لصفة حسنى من صفات الله سبحانه وتعالى حيث هو العالم العليم : (يعلم ما فى السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور) (٤ التغابن) . (يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها) (٢ سبأ) (وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) . (٦١ يونس) .

لذا كان أول أمر من الله للإنسان هو (اقرأ) .. ذلك أن الإنسان إذا قرأ عرف .. ومن عرف نفسه .. عرف الله .. وتلك هى الغاية (وما خلقت الجن والإانس إلا ليعبدون) .

وفى هذا الكتاب الذى بين يديك عزيزى الإنسان نحاول - والله الموفق - أن نجيب مما علمناه وتعلمناه على سؤال هو فى الحق جامع لكل سؤال عن حقيقة الإنسان أو حقيقة البدن والروح والنفس .. نعرض له بقدر ما أئسع اجتهدنا وما استوعبنا من قراءاتنا لعديد من الباحثين والعارفين من السلف ..

والمجتهدين من الخلف .. متخذين من القرآن والسنة هاديًا ومرشدًا يعين على
وضوح الرؤية وبيان المقصود .. فإن أصبنا المراد فن توفيق الله لنا وإن أخطأنا
فن عند أنفسنا والله خير معلم وهاد .

د . عيسى عبده

أحمد إسماعيل يحيى

البَابُ الأولُ

كيف بدأ الخلق ؟

(قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة
الآخرة إن الله على كل شيء قدير . يعذب من يشاء ويرحم من يشاء
وإليه تقلبون) .

(٢٠ ، ٢١ العنكبوت)

كيف بدأ الخلق ؟

(قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق) (٢٠ العنكبوت)

هذا هو السؤال .. وأى سؤال كان أولى بالمعرفة من هذا السؤال بالذات ؟
إنه سؤال البداية إذا أراد الإنسان أن يعرف البداية .. وإنه سؤال النهاية إذا أراد الإنسان أن يؤمن بالنهاية .. ومن عجب أن إجابة هذا السؤال يمكن أن تستغرق عمر الإنسان كله أيضاً من البداية حتى النهاية .. وهى إجابة لا بد جامعة لكل ما يجب على الإنسان أن يعرفه من علوم الدنيا .. وعلوم الآخرة .. (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ؟) والسؤال هنا يبدأ فיאمرنا بالسير فى الأرض .. السير وليس القعود أو اليأس أو الأخذ بالمعلوم السهل وعدم الجرى وراء المجاهيل .. (سيروا) وبالحا من كلمة .. أين منها (اجتثوا) أو (تعلموا) أو (ارتحلوا) أو (اسألوا) .. إلخ إنه كلام الله .. وكفى .. (سيروا) فى كل عصر ومصر فالأرض هنا بمعنى المكان والزمان ثم يحىء أمر الله لنا أيضاً فى ذات السؤال (فانظروا) .. انظروا بكل ما لديكم من وسائل النظر والبحث والفكر .. انظروا بعقولكم .. انظروا بعدساتكم .. بمخابركم الحديثة .. بمواد الكيمياء .. بالغواصات .. بسفن الفضاء .. بل حتى ببصائركم وأفئدتكم .. (فانظروا) هكذا جاءت مطلقة غير مقيدة فيها الأمر بالمعرفة .. وفيها الأمر بالنظر تمهيداً للإيمان وإعجازاً كلامياً وعلمياً .. كيف بدأ الخلق ؟ وكيف بالذات .. وليس أين بدأ الخلق ؟ أو متى بدأ الخلق .. أو حتى لماذا بدأ الخلق ؟ بل كيف ؟.

وسبحانك يا خالق الأكوان .. والله إن الإنسان بعقله المحدود وجهده المكدود .. لا يملك أمام هذا السؤال غير السجود لخالق كل ما في الوجود .. ومن أين يبدأ الإنسان .. وإلى أين ينتهى مع مثل هذا السؤال الجبار .. وكيف تكون مسيرة الإنسان معه حتى لو عرف له نقطة بداية ؟ فاللهم علمنا من علمك وأنزل لنا طريقنا الديجور ... بما تهبه للطائعين من بصائر النور .. واللهم إنا باسمك نبدأ وإليك بما تعلمنا ننتهى .. فيسر علينا الصعاب .. وافتح لنا مغاليق الأبواب واكشف لنا عن طلاسم الإنسان كل نقاب .. إنك أنت الوهاب .. وعفواً يا عزيزى القارئ إذا نحن لم نعالج فى هذا الكتاب غير بعض ما يفتح به الله علينا فى (بعض) جوانب خلق الإنسان .. الإنسان بالذات .. وليس الخلق فسبحان المحيط بالخلق .. وعوالمه .. وهل نحن إلا عباد من بنى الإنسان ؟ الإنسان الذى يحيط به من كل جانب .. الجهل .. والغفلة والنسيان ؟ أو يعلمه من علمه الرحمن .. وهو نعم المولى المستعان .

ومهلأ أنهى الإنسان ، فإننا لا نكاد نبدأ أول خطوة فى الإجابة حتى يخرج علينا سؤال جديد :

(هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً^(١)) وهو سؤال يدفعنا من جديد إلى ما قبل البداية .. حين لم يكن الإنسان شيئاً مذكوراً . فتى يا رب كان ذلك الحين ؟ وهل كان الإنسان فيه موجوداً أولاً ؟ أو أنه كان موجوداً ولكنه لم يكن شيئاً مذكوراً ؟ وما هو يا ترى معنى (مذكوراً) فى هذا السؤال ؟

وتتوالى الأسئلة وتتتابع : « فلينظر الإنسان مم خلق ؟ .. مم خلق يارب .. من تراب ؟ من طين لازب ؟ من حمأ مسنون ؟ من صلصال كالفخار ؟ من

(١) الإنسان / ١ .

نطفة أمشاج ؟ من ماء دافق ؟ من منى يمى ؟ وما هى مراحل وأطوار خلقه يا ترى ؟ وكيف يحمل ذريته ؟ وكيف يتحدد عمره ورزقه .. إلخ ؟ وما هى الظلمات الثلاث التى تحتويه جنيناً ؟ وما هى النطفة والعلقه والمضغة ؟ ومتى وكيف تحل بها الروح ؟ وما هى الروح ؟ وهنا تنداعى الأسئلة وتتزاحم .. فالروح عالم مثير مثير .. مثلاً السؤال عن قدمها وحدوثها .. وماذا يقول الأقدمون والمحدثون عنها ؟ وما صلة الروح بالنفس والعقل ؟ وكيف كانت فكرة الروح عند الإنسان البدائى ؟ وكيف انتقل من فكرة الروح إلى خلود الروح ؟ ثم كيف انحرف إلى تعبد أرواح الأجداد ؟ وهل امتد ذلك إلى الجمادات ؟ وكيف نظر الفراعنة إلى الروح ؟ وماذا قال الإغريق والرومان والهندوس عنها ؟ ثم تنتقل إلى الروح فى الفكر العربى والإسلامى لماذا قال الفارابى ؟ وابن سينا ؟ والغزالى ؟ وعلمائنا المعاصرون ؟

ثم تفرع الأسئلة وتشعب :

لما مفهوم كلمة الروح فى اللغة العربية ؟ وما حديث القرآن عنها ؟ وهل الروح والنفس شىء واحد أو شيان ؟ وما الفرق بينها ؟ .. بل ما مراتب الروح ؟ وما أنواع تعلقها بالبدن ؟ وهل الروح جسد أولاً ؟ ولماذا لا ؟ وهل الروح سبب الحياة ؟ وما معنى ذلك ؟ وما هى الدلائل على خلق الروح ؟ وهل سبقت البدن فى الخلق أو لحقت به ؟ وهل هى جسم متحيز ؟ ثم هل تموت الروح أولاً ؟ وأين مستقرها بعد الموت ؟ وكيف تكون حالتها بعد مفارقتها للجسد ؟ .

ويمتد الحديث إلى الحياة بعد الموت والبعث والخلود وعن الاتصال بين أرواح الأحياء والأموات .. وتحضير الأرواح .. ثم حديث آخر عن النفس أيضاً .. فالحقيقة النفس ؟ وما أنواعها ؟ واحدة أو ثلاث أو أكثر ؟ وكم

عدد دورها ؟ وما معنى موت النفس ؟

وبعد .. عزيزى القارئ الإنسان :

هذا عرض لبعض عناصر الكتاب أردنا أن نضعه بين يديك .. فقط لترى كم هو حق ما نقول به من أن العلم أوسع من أن يحاط به حتى لو كان علم الإنسان عن روحه ونفسه .. فسبحان الذى علم الإنسان ما لم يعلم ..

ما قبل خلق آدم

(هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) (١ الإنسان)

هل : بمعنى قد . قاله الكسالى والفراء وأبو عبيدة^(٢) وحكى عن سيويه . وهى جملة خبرية بمعنى قد أتى . والإنسان هو آدم عليه السلام . وحين من الدهر : قال ابن عباس فى رواية أبى صالح : أربعون سنة مرت به قبل أن ينفخ فيه الروح وهو ملقى بين مكة والطائف .

وعن ابن عباس أيضاً وفى رواية الضحاك : أنه خلق من طين فأقام أربعين سنة ، ثم من حمأ مسنون أربعين سنة ، من صلصال أربعين سنة ، فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة ، وزاد ابن مسعود فقال : أقام وهو من تراب أربعين سنة فتم خلقه بعد مائة وستين سنة ثم نفخ فيه الروح . وقيل الحين المذكور ها هنا لا يعرف مقداره .

وعن ابن عباس أيضاً حكاه الماوردى : لم يكن شيئاً مذكوراً : قال الضحاك عن ابن عباس أى كان جسداً مصوراً تراباً وطينا لا يذكر ولا يعرف

(٢) تفسير القرطوبى ص ٦٩٠ ط دار الشعب/القاهرة .

ولا يدري ما اسمه ولا ما يراد به ثم نفخ فيه الروح فصار مذكوراً قاله الفراء وقطرب وثعلب . وقال يحيى بن سلام : لم يكن شيئاً مذكوراً في الخلق وإن كان عند الله شيئاً مذكوراً . وقيل ليس هذا الذكر بمعنى الإخبار فإن أخبار الرب عن الكائنات قديم ، بل هذا الذكر بمعنى الخطر والشرف والقدر . تقول فلان مذكور أى له شرف وقدر . وقد قال تعالى : (وإنه لذكر لك ولقومك) أى قد أتى على الإنسان حين لم يكن له قدر عند الخليفة . ثم لما عرف الله الملائكة أنه جعل آدم خليفة وحمله الأمانة التى عجز عنها السموات والأرض والجبال ظهر فضله على الكل فصار مذكوراً .

قال القشيري : وعلى الجملة ما كان مذكوراً للخلق وإن كان مذكوراً لله . وحكى محمد بن الجهم عن الفراء : (لم يكن شيئاً مذكوراً) قال : كان شيئاً ولم يكن مذكوراً . وقال قوم : النفي يرجع إلى الشيء أى قد مضى مدد من الدهر وآدم لم يكن شيئاً يذكر في الخليفة لأنه آخر ما خلقه من أصناف الخليفة والمعدوم ليس بشيء حتى يأتي عليه الحين . والمعنى قد مضت عليه أزمته وما كان آدم شيئاً ولا مخلوقاً ولا مذكوراً لأحد من الخليفة^(٣) . وهذا معنى قول قتادة ومقاتل . قال قتادة : إنما خلق الإنسان حديثاً ما نعلم من خليفة الله جل ثناؤه خلقته كانت بعد الإنسان . وقال مقاتل : في الكلام تقديم وتأخير وتقديره : هل أتى حين من الدهر لم يكن الإنسان شيئاً مذكوراً . لأنه خلقه بعد خلق الحيوان كله . ولم يخلق بعده حيواناً . وقد قيل : (الإنسان) في قوله تعالى : (هل أتى على الإنسان حين) عني به الجنس من ذرية آدم وإن الحين تسعة أشهر مدة حمل الإنسان في بطن أمه . (لم يكن شيئاً مذكوراً) إذ كان علقه ومضغة لأنه في هذه الحالة جواد لا خطر له . وقال أبو بكر رضى الله عنه لما قرأ هذه

(٣) جدير بالذكر أن الجن والملائكة وغيرها من الخليفة سبقت خلق آدم .

الآية : ليها تمت فلا نبلى أى لست المدة التى أنت على آدم لم تكن شيئاً مذكوراً
تمت على ذلك فلا يلد ولا يبتلى أولاده . وسمع عمر بن الخطاب رضى عنه رجلاً
يقرأ الآية السابقة . فقال : « ليها تمت » .

بدء المخلوقات وأوائل الكائنات الكلية^(٤)

* أول ما خلق الله تعالى القلم . قال له اكتب فقال يارب ما أكتب ؟
قال : اكتب علمى فى خلقى إلى يوم القيامة فجرى القلم بما أمره به سبحانه
فافتقر إلى موجدده وبارئه تعالى وتقدس (ذكره الشيخ فى الدررة البيضاء) .
* أول ما خلق الله تعالى العقل يعنى بعد القلم واللوح المحفوظ . خلق العقل
وقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر ، فقال وعزى وجلالى ما خلقت أجلاً
منك شيئاً ، بك آخذ وبك أعطى وبك أحاسب وبك أعاقب (الغزالي فى خبر
الملوك) .

* أول ما خلق الله من الأشياء النباتية اليراع أى القصب . ثم خلق القلم من
ذلك اليراع ثم قال : اكتب ما يكون إلى يوم القيامة (السيوطى فى الهيئة
السنية) .

* أول المخاطبين هو أول المخلوقين وهو العقل الهيولى النوراني . ولما كان لا
نظير له فى المحترعات الأوليات كانت مخاطبة الحق له بما فيه من معانى الحروف

(٤) المصدر : محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر : تأليف العلامة الشيخ علاء الدين على دده
السكوتارى البهنوى . فرغ من تأليفه فى شهر رجب سنة ٩٩٨ هـ . طبعة أولى المطبعة العامرية الشرقية سنة
١٣١١ هـ . وهو تلخيص كتاب السيوطى فى معرفة الأوائل وعن غيره من الكتب كتحفة الألباب وتاريخ
الخلفاء وسير الملوك وكتر الأسرار . إلخ .

في سر العقل ألقاً واحداً لأنه حقيقة مجمع الحروف بالقوة فسمع أسرار العلوم بحقائق الحروف قبل وجودها في عالم الأسماء فهو صاحب رمز وإشارة وإدراك (من شمس المعارف) .

• أول ما خلق الله تعالى العقل ثم النفس ثم الطبيعة ثم الهوى ثم الجسم الكلي ثم الأفلاك ثم الأركان ثم المولدات وهى المعادن والنبات والحيوان وآخر موجود الإنسان .. وخلق الله الأرواح على مراتبها من مرتبة العقل إلى ما دونه (الدرة البيضاء) .

• أول ما خلق الله تعالى يعنى من العناصر الكلية الجامعة ، قال ابن وهب : خلق الله تعالى أولاً جوهره مضيئة طينة خاتم الأنبياء وعنصر سيد الأصفياء محمد ﷺ كفضة خاتم ، ونظر فيها بالهية فذابت وصارت ماء وهو الذى استوى العرش عليه تم تموج الماء واجتمع فى وسطه قطعة زبد فانفلقت أربع قطع فخلق من كل قطعة حرمًا حرم الكعبة والمدينة والقدس والكوفة وهو حرم رابع عند بعض المحققين وهو المروى عن على رضى الله عنه ولذا اتخذها على دار الخلافة وسيئخذها المهدي خليفة آخر الزمان ثم تلالأت الأرض من تلك الطينة فلما ركب آدم منها من طين تلالأت جبهته بنوره ثم نقل النور من صلبه إلى صلب طاهر حتى أخرجه من بين أبويه لم يلتقيا على سفاح قط كما ذكره فى الشفاء وغيره . قال الحافظ الدمشقي فى وصف آباءه بنوره ﷺ :

تنقل أحمد نوراً عظيماً تلالأ فى جباه الساجدين
تنقل فيهم قرناً فقرناً إلى أن جاء خير المرسلينا

• أول الأنبياء خلقاً سيدنا محمد ﷺ كما قال : كنت أول الأنبياء خلقاً وآخرهم بعثاً . وعن كعب الأحبار لما أراد الله تعالى أن يخلق جسد سيدنا محمد

ﷺ جاء سيدنا جبريل بقبضة نقية بيضاء من نور الأرض من موضع قبره ، وكانت تلك القبضة في موضع الكعبة فغسلت في أنهار الجنة وعجنّت بماء الرحمة ، وطيف بها عوالم المنكوت حتى عرفت الملائكة اسمه ونعته قبل اسم آدم بألف عام ، ولذا قال عليه الصلاة والسلام كنت نبياً وآدم بين الماء والطين :
 * أول ما خلق الله تعالى من الأجسام جوهرة تلالأت فكانت طينة سيدنا محمد ﷺ منها ونظر إليها بالهيبة فصارت ماء وكان عرشه على الماء قبل أن يخلق السموات ، ثم تموج الماء فخلق الأرض منه فكان يتلألأ نور الطينة النبوية لأهل السماء كالقمر لأهل الأرض ، ثم خلق من الأرض طينة آدم فكان يتلألأ نوره من جبهته ، وكان نوره ﷺ مع اسمه الشريف في كل موضع من الجنة وعلى محور الحور العين وجبين الملائكة وساق العرش وأبواب السموات ، وكان في الأرض في موضع قبره غالباً على نور الشمس حتى انتقل إلى جبين آدم حين خلق أصول التواريخ .

* أول ما بدأ وعسى من حضرة الكون نور سيدنا محمد ﷺ وهو أنه لما قتل قابيل أخاه هابيل اغتم آدم بذلك فأمره الله تعالى أن يغشى زوجته وأوحى إليه قم فتطهر وتطيب وتوضأ وصل واغش زوجتك على طهارة ، فإني مخرج منك نوري أجعله خاتم الأنبياء وخيار الخلفاء وأختم به الزمان ، فواقع آدم حواء عند ذلك فحملت لوقتها وأشرق نوره بيمينها فوضعت شيئاً عليه السلام ثم انتقل نوره ﷺ من صلب طيب إلى طاهر أخرجه من بين أبيه لم يلتقيا على سفاح قط ﷺ ، كما أشار في الحديث المشهور : أول ما خلق الله روحى أول ما خلق الله نوري قال أهل التحقيق لا شك أنه ﷺ مبدأ كل كمال ومنشأ كل خصال وله سبق والتقدم والفتح والختم ظاهراً وباطناً في جميع الفضائل والكمالات .
 وهذا حديث جامع من بدء خلق رسول الله ﷺ أخرجه العلماء مروياً عن

جابر الأنصاري رضى الله عنه حين سئل عن بدء خلقه فقال :
 أول شيء خلقه الله تعالى نور نبيك يا جابر ، خلقه ثم خلق منه كل خير
 وخلق بعده كل شيء وحين خلقه أقامه قدامه في مقام القرب اثني عشر ألف
 سنة ، ثم قسمه أربعة أقسام فخلق العرش من قسم والكرسى من قسم وحملة
 العرش وخزنة الكرسى من قسم ، وأقام القسم الرابع في مقام الحب اثني عشر
 ألف سنة ثم جعله أربعة أقسام فخلق القلم من قسم واللوح من قسم واللجنة من
 قسم ، وأقام القسم الرابع في مقام الخوف اثني عشر ألف سنة ثم جعله أربعة
 أجزاء فخلق الملائكة من جزء وخلق الشمس والقمر من جزء والكواكب من
 جزء ، وأقام الجزء الرابع في مقام الرجاء اثني عشر ألف سنة ثم جعله أربعة
 أجزاء فخلق العقل من جزء والعلم والحلم من جزء والعصمة والتوفيق من جزء ،
 وأقام الجزء الرابع في مقام الحياء اثني عشر ألف سنة، ثم نظر الله تعالى فترشح النور
 عرقاً فقطرت منه مائة ألف وعشرون ألفاً وأربعة آلاف قطرة، فخلق الله من كل
 قطرة روح نبي ورسول، ثم تنفست أرواح الأنبياء، فخلق الله من أنفاسهم نور
 أرواح الأولياء والسعداء والشهداء والمطيعين من المؤمنين إلى يوم القيامة، فالعرش
 والكرسى من نوري، والكروبيون^(١) والروحانيون من نوري، وملائكة
 السموات السبع من نوري، واللجنة وما فيها من النعيم من نوري، والشمس والقمر
 والكواكب من نوري ، والشهداء والسعداء والصالحون من نتائج نوري ، ثم
 خلق الله اثني عشر ألف حجاب فأقام النور وهو الجزء الرابع في كل حجاب ألف
 سنة وهي مقامات العبودية وهي حجاب الكرامة والسعادة والهيبة والرحمة
 والرافة والعلم والحلم والوقار والسكينة والصبر والصدق واليقين فبعد الله ذلك

(١) الملائكة الكروبيون : أقرب الملائكة إلى حملة العرش.

النورُ في كل حجاب ألف سنة فلما خرج النور من الحجب ركبهُ الله في الأرض فكان يضيء منه ما بين المشرق والمغرب كالسراج في الليل المظلم ، ثم خلق الله تعالى آدم من الأرض وركب فيه النور في جبينه ثم انتقل منه إلى شيث ، فكان ينتقل من طاهر إلى طيب ومن طيب إلى طاهر إلى أن وصل إلى صلب عبد الله ابن عبد المطلب ومنه إلى رحم أمي آمنة ، ثم أخرجني إلى الدنيا فجعلني سيد المرسلين وخاتم النبيين ورحمة للعالمين وقائد الغر المحجلين ، هكذا كان بدء خلق نبيك يا جابر أخرجه الشيخ الأكبر وصنف كشف الكشاف في شرح البردة وغيره من العلماء رحمهم الله فثبت بذلك أن جميع المكونات تكونت بإفاضة فيض نور الرسول ﷺ الذي هو القاسم المستفيض من الفيض الأول الأقدس . وأخرج القاضي في الشفاء عن ابن عباس رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ : لما خلق الله تعالى آدم أهبطني في صلبه إلى الأرض وجعلني في صلب نوح في السفينة وقذف بي في النار في صلب إبراهيم ، ثم لم يزل ينقلني في الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة حتى أخرجني من بين أبوي لم يلتقيا علي سفاح قط ، قال القاضي وإلى هذا أشار عمه العباس رضي الله عنه في قصيدته الشريفة في مدحه ﷺ .

من قبلها طبت في الظلال وفي مستودع حيث يخصف الورق
ثم هبطت البلاد لا بشر أنت ولا مضغة ولا علق
بل نقطة تركب السفين وقد ألجم نسراً وأهله الغرق
وردت نار الخليل مكسماً تجول فيها ولست تحترق
تنقل من صلب إلى رحم إذا مضى عالم بدا طبق
* أول يوم خلقه الله يوم الأحد (السيوطي) .

* أول ابتداء خلق العالم كان في يوم الأحد والفراغ في يوم الجمعة وفيه نفخ

فى آءم الرور؁ ثم ءلقت ءواء من آءم عللها السلام وأسكنا الجنة ثلاث ساعات وهوربع يوم من أيام الآخرة مائتا سنة وخمسون سنة من أعوام الدنيا [من أصول التاريخ] .

* أول ما ءلقت من الزمان اللل ثم النهار ثم الشمس ثم القمر فعجل الشمس ضلواء والقمر نوراً لعنى لأهل الدنيا؁ وأما الآخرة فليس فلها شمس ولا قمر؁ لأن الجنة نور كلها (كتر الأسرار) .

* أول ما ءلقت اللل مظلماً وءلقت النور فطرد الظلمة إلى ءلث شاء الله ثم ءلقت الشمس والقمر والنهار وليس لله ءلقت أعظم من اللل والنهار؁ وكان لقول بعض الأعلاء إذا ءاء اللل ءاء ءلقت الله الأعظم . وءكر بعض المفسرلن أن الله ءلقت ءوهرتلن إءءاهما مظلومة والأخرى مضلثة فاستءلص من المضلثة كل نور؁ فعلق من نورها النهار ومن الباقى النار واستءلص من الظلمة كل ظلمة فعلق منها اللل وءلقت من الباقى الجنة؁ فاللل من الجنة والنار من النار فلذلك كان الأنس باللل أكثر وهو محل المعراج؁ وأنس ءللبن ومراة المشاءة ومحل التئزلات الربانىة وكلها فى الجنة (كتر الأسرار) .

* أول ما ءلقت الله تعالى النور والظلمة ثم بلنها فجعل الظلمة لالا وجعل النور نهاراً (السوطى) .

* أول شىء بناه الله السماء وءء فى التوراة (أوائل السوطى) .
* أول ما ءلقت من ءلوان النءلة وآءر ما ءلقت من ءلوان القرد (ذكره الشلخ الأعكبر) .

* أول ما ءلقت من النبات الكماء^(١) . (ذكره الشلخ ألساً) .

* أول ما ءلقت الله آءم علله السلام ءلقت فى ءنة عدن ذكره ءمهور العلماء وقبل فى سماء الدنيا وقبل ءلر ذلك والأول أصء . وكان بلن ءلقت ونفء

* (١) ساء بلقص 'لارص فلءرء نلأءرء الفطر .

الروح فيه أربع جمع من جمع الآخرة ، وعن ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنها لما خلق الله تعالى الجنة وأسكن فيها آدم بقى فيها وحده وما كان معه من يأنس به فيها ، فألقى الله تعالى عليه النوم ثم أخذ ضلعاً من أضلاعه من الجانب الأيسر ووضع مكانه لحماً فخلق حواء منه فلما استيقظ آدم وجدها عند رأسه قاعدة فسألها من أنت قالت : إني امرأة قال : لم خلقت قالت لتسكن إلى وأسكن إليك فقالت له الملائكة : يا آدم ما اسمها قال حواء ، قالوا ولم سميت حواء قال : لأنها خلقت من حى ، قال أهل التاريخ ، وأما عمرها فتسعمائة سنة وسبع وتسعون وقيل وسبع وسبعون (كثر الأسرار) .

• أول من أسكنه الله تعالى الأرض قبل آدم عليه السلام طائفة من الجن خلقهم من مارج من نار وإبليس فيهم ، فنهاهم الله عن سفك دماء البهائم فسفكوا وعدا بعضهم على بعض ، فلما رآهم إبليس لا يقلعون سأل الله تعالى أن يدفعه إلى السماء فصار مع الملائكة يعبد الله تعالى أشد عبادة فأرسل الله تعالى إلى الجن قبيلاً من الملائكة فطردوهم إلى أقصى جزائر الدنيا وقتلوا منهم ما شاء الله ، وجعل الله إبليس على سماء الدنيا خازناً فوقه في صدره كبر فأبى واستكبر فجرى فيه قدر الله تعالى ما حكاه عنه سبحانه من الطرد والكفر قال أهل التفسير إن الجان أبو الجن كما أن الإنسان أبو الإنس وسمى جانا لتواريه عن الأعين وفي إبليس ثلاثة أقوال : أنه من الجن ففسق ، أو من الملائكة ففسخ ، أو من الجنائين فطرد والعياذ بالله (كثر الأسرار) .

• أول ما أهبط من الجنة آدم وحواء ، أهبطا متفرقين فتعارفا بالموضع الذى يسمى عرفات وتعارفها أولاً فيه سمي بهذه التسمية ، فلما اجتماعا فيه تاق أى اشتاق إلى حواء فغشيها فاشتملت على ذكر وأنثى ، فسمى الذكر قايين والأنثى إقليا ، واختلف في الذكر الأول ، فذكر الأكثرون أن اسمه قايين ومنهم من قال

قابيل ، وهو الأشهر والأغلب ، وفي الأخبار أن الولد الأول مات ثم الثاني ثم عاش بعدهما ولد ، فأول ولد عاش قابيل (كذا ذكره بعض المحققين توفيقاً وتطبيقاً) .

* أول ما أهبط آدم وحواء من الجنة ، أهبطاً متفرقين فتعارفا بالموضع الذى يسمى عرفات ، ونزلت حواء بحدة قرب مكة من الحرم وآدم على جبل الراهون كما مر وعليه الورق الذى خصفه فيبس فذرت الرياح فى بلاد الهند ، فتكونت الروائح الطيبة بأرض الهند من ذلك الورق ولذلك خصت بالعود والقرنفل والمسك ونسائر الطيب وأيضاً ذلك الجبل ينبت عليه اليواقيت وفيه الماس وغيره من الجواهر (زبدة التواريخ) .

* أول ما اختار آدم عليه السلام عند عرض الأشياء كلها عليه الخيل ورد فى الخبر ، لما عرض الله تعالى على آدم عليه السلام كل شيء مما خلق قال له : اختر من خلقى ما شئت فاختر الفرس فقبل له أخذت عرك وعز ولدك خالداً ما خلدوا وباقياً ما بقوا أبد الأبدین (شفاء الصدور عن ابن عباس رضى الله عنهما) .

* أول ما يكون الجنين فى الرحم يكون فى الشهر الأول فى تدبير زحل ، وفى الثانى فى تدبير المشترى وفى الثالث فى تدبير عطارد حتى يكون فى السابع فى تدبير القمر ، فإن ولد فيه عاش لأن خلقته قد تمت واستوفت طبائع الكواكب وقواها بالشمس والنجم ، لأن كمال الوجود بينهما ، وأما الشهر الثامن فيستولى عليه البرد والجمود والضعف فإن ولد فيه مات وأما التاسع فيتولاه المشترى فيكتسب المولود قوة وحرارة وصلاًحاً ، فإذا ولد عاش ، فأقل مدة الحمل ستة أشهر وأكثره أربع سنين (من شرح لامية العجم) .

* أول ما تعلقت به القدرة من عالم الأمر الإلهى الروح وهو المسمى بالروح

المحمدى الكلى تكونت الأرواح منه قبل الأجسام كما أشار ﷺ أنا أبو الأرواح
وآدم أبو البشر (تحقيق) اختلف أهل التحقيق في تعريف الروح يقول الإمام
الغزالي ما معنى قوله تعالى (قل الروح من أمر ربي) ، وما معنى عالم الأمر وعالم
الخلق ، فقال عالم الأمر عبارة عن الموجودات الخارجة عن الحس والخيال ،
والجهة والمكان ، والتخير وهو ما لا يدخل تحت المساحة والتقدير ... ، وعالم
الخلق عبارة عن كل ما يقع عليه مساحة وتقدير من الأجسام وعوارضها وقال :
الروح أمر رباني وحقيقة ذات الروح أنه قائم بنفسه ليس بعرض ولا جسم ولا هو
متحيز ولا يحل المكان والجهة ولا هو متصل بالبدن والعالم ولا منفصل عنه ولا
هو داخل في أجسام العالم : والبدن ولا خارج ، بل الروح نفحة ربانية ولطيفة
إنسانية سارية في عالم البدن سريان التصرف والتدبير من السلطان إلى ممالكه
تحت تصرفه وحكمه وقيل : جوهر مجرد غير متحيز ، وقيل : جسم لطيف وراء
هيكل المحسوس له هيكل نوراني وجسم روحاني سريانه فيه كالماء في الورد والنار
في الفحم والسم في البدن وقيل : سريانه في البدن تعلق التدبير والتصرف
كالشبكة في يد الصياد والإقليم تحت حكم الملك له جنود من القوى الباطنة
والظاهرة مسخرة تحت حكمه بأمر بآمره ومبدعه على خمسة عشر وجهها بل أكثر
وأصح تعريفاته السكوت وتفويض أمره إلى موجدته وبارئته من العدم والوقوف
عند قوله تعالى (قل الروح من أمر ربي) .

* أول ما نفخ الروح في آدم في رأسه فجعل ينظر وهو يخلق وبقيت رجلاه
فقال : يارب عجل قبل الليل ورد في الحديث عن سلمان رضى الله عنه عن
النبي ﷺ .

* أول ما قال آدم بعد نفخ الروح الحمد لله رب العالمين وهى أول كلمة
جرت على لسانه فقبل له ولهذا خلقت يا آدم ورد في الحديث الصحيح بمعناه .

* أول حركة صدرت من آدم بعد نفخ الروح العطاس لما سرى الروح في أعضائه بعد دخوله من الخيشوم وصل إلى الدماغ ، فعطس وحمد الله تعالى فصار التحميد أول سنة بشرية ظهرت على لسان آدم ، فكانت أفضل من الفرد المقابل من الرد للحاق العاطس من تسميت الملائكة ، فلهذا ورد : أفضل القرآن الحمد لله رب العالمين ، فتكلم الأفضل من الملائكة بالأفضل من القرآن ، لأنه قد ورد في الحديث أفضل القرآن الحمد لله رب العالمين ، فبدأ به أولا ونخم به آخرًا ، كما قال تعالى في أهل الجنة : وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين الآية (قاله بعض المحققين) .

* أول ما خلق الله تعالى من أعضاء الإنسان فرجه ثم قال : هذا أمانتي عندك فلا تضعها إلا في حقها (أخرجه السيوطي في الأوائل) .

* أول من سجد حين أمرت الملائكة بالسجود لآدم إسرئيل عليه السلام ، ولذا وكل بالأرواح الإنسانية بالصورة واللوح المحفوظ المتعلق بعالم الإنسان (السيوطي) .

* أول مخلوق على صورة الإنسان قبل خلق البشر إسرئيل فإن الله خلقه على صورة الإنسان وهو أقرب الملائكة إلى الله تعالى ، وفي الحديث النبوي : لا تضربوا الوجوه فإنها على صورة إسرئيل عليه السلام . قال المحققون كل مخلوق في مرتبة من صورة وهيئة ظاهرة وباطنة فحسن ، ولكن الإنسان خلق في أحسن تقويم ، ولم يخلق أجمل منه ولا أحسن ، فتبارك الله أحسن الخالقين . (روضة المعارف) .

* أول من أفشى السلام وبادر بالسلام آدم لما قام على رجليه بعد نفخ الروح ، والتفت يمينًا وشمالًا فرأى في الجنة مجالس الذكر من الملائكة ، فشى نحو مجلس الذكر ، فهي أول مشية صدرت منه ، ثم استأنس بالذكر

والذاكرين فسمى إنساناً من الإنس ، فصار السلام سنة ثانية جرت على لسان النبوة . وفي الخبر إنما سمي إنساناً لأنه نسي ما عهد مع الله تعالى من أكل الشجرة ، ونسى ما وهب من عمره لولده داود عليهما السلام ستين سنة كما ورد في الأحاديث .

* أول من رد التسليم والترجيم للعاطس الحامد الملائكة على آدم عليه السلام ، فكان ذلك الرد أول الفروض الكفائية على بنى آدم ، فالسنة البشرية من السلام والحمد عند العطاس أفضل من الفرض الملكي من حيث التسبب ، فافهم سر تفضيل آدم عليه السلام وتعليمه الملائكة وتشريعه الأحكام من السنن والفروض (ذكره الإمام النووي) .

* أول حمل حواء عليها السلام حمل خفيف مذكور في القرآن ، كما قال تعالى : (فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً) الآية قيل في تفسيرها فلما قرب وضع أول ولد جاءها إبليس فقال : ما هذا الذى فى بطنك ؟ قالت : ما أدرى فقال : أخاف أن تكون بهيمة ، أو قال : أخاف ألا يعيش كما ورد فى الخبر ، وإني من الله بمتزلة وقرية ، فإن دعوت الله وولدت إنساناً صالحاً أتسمينه باسمي ؟ فقالت : نعم ، وما اسمك ؟ قال : عبد الحرث ، فكذب إبليس وكان اسمه فى الملائكة حارث فخدعها فهو أول خدعة فى الأرض ، كما أنه أول خدعة فى أكل الشجرة فى الجنة أو فى السماء (ذكره أهل التفسير) .

* أول ما يخلق فى الإنسان عند تكوينه فى الكون الشهادة حاسة اللمس ، فيدرك بها أجساماً من الموجودات ، كالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، واللمس قاصر عن الألوان ، ثم يخلق له حاسة البصر فيدرك بها الألوان ، وهو يتسع لعالم المحسوسات ، ثم يفتح السمع فيسمع الأصوات ، ثم يخلق الذوق ثم يخلق فيه التمييز وهو قريب من سبع سنين ، ولذا أشار النبي ﷺ : مروا

صبيانكم بالصلاة إذا بلغوا سبعا ، ثم يترقى إلى طور آخر فيخلق له العقل فيدرك
الواجبات فيصير مكلفاً بعد عشر سنين ، فيقبل التأديب والتكليف ، ولذا
قال : واضربوهم إذا بلغوا عشراً فافهم سر التشريع النبوي (ذكره الغزالي في
القسطاس) .

* أول تكوين في الأرض المعادن ثم النبات ثم الحيوان ثم الإنسان وهو آخر
مخلوق . (الشيخ الأكبر أيضاً) .

* أول بيت بني الكعبة ، قال تعالى : (إن أول بيت وضع للناس للذي
ببكة) وفي حديث أبي ذر قلت يا رسول الله أى مسجد وضع أولاً ؟ قال
المسجد الحرام ، قال الحسن رضى الله عنه إنه أول مسجد عبد الله تعالى فيه في
الأرض ، بعث الله جبريل إلى آدم عليه السلام فأمره ببناء الكعبة فبناه آدم ، ثم
أمر بالطواف به ، وقبل له أنت أول الناس وهذا أول بيت وضع للناس .
(السيوطي) .

* أول جبل وضعه الله على الأرض جبل أبي قبيس ثم مدت منه الجبال .
(الحديث للسيوطي) .

* أول من وضع مقام إبراهيم للناس بعد الطوفان إلياس بن مضر ولم تزل
العرب تعظمه ومضركان يسمع تلبية النبي ﷺ من صلبه (من تاريخ مكة) .
* أول بيت وضع للعبادة والبركة الكعبة ، قال على رضى الله عنه وابن
عباس رضى الله عنهما : هو أول بيت وضع في الأرض ، بناه آدم عليه
السلام ، وعن قتادة والحسن كان قبله بيوت كثيرة ، ولكنه أول بيت وضع
للعبادة وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن هذا البيت أحد خمسة عشر بيتاً ، في
كل سماء بيت وفي كل أرض بيت بعضها مقابل بعض ، ولكل بيت زوار بل
ابن عباس يزوره مثلي ، قال الحسن بن علي رضى الله عنهما : إن الله بعث

ملائكة فقال ابنوا لى بيتاً فى الأرض بمثال البيت المعمور وقدره ، وأمر أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور ، قال : وهذا كان قبل آدم عليه السلام ، واتفقوا على أنه أول بيت وضع للعبادة ، وإنما اختلفوا هل هو أول بيت قال الإمام الغورى قول الجمهور أنه أول بيت وضع مطلقاً (تاريخ مكة).

• أول قرية بنيت على وجه الأرض قرية ثمانين ، بناها نوح عليه السلام لما خرج من السفينة، وسميت باسم الثمانين الذين كانوا معه فى السفينة، كانوا سريانيين وهو منسوب إلى سورية وهى أرض الجزيرة، وكان نوح وقومه قبل الغرق فيها ، وكان لسانهم سريانياً إلا رجلاً واحداً يقال له جرههم فكان لسانه العربى (أوائل السيوطى) .

• أول ما نزل نوح عليه السلام من السفينة على جبل يقال له الجودى بقرب الموصل ودجلة ، نزل ومعه أولاده سام وحام ويافت وبناته الثلاث وأزواج أولاده وأربعون رجلاً وأربعون امرأة ، فابتنوا مدينة اللمانين وقطع نسل هؤلاء اللمانين ، وجعل الله نسل الخلائق من نوح عليه السلام ومن أولاده الثلاثة ، كما أخبر تعالى : (وجعلنا ذريته هم الباقين) ، ثم تفرق نسله وقسم الأرض بينهم وعاش نوح عليه السلام بعد الطوفان ثلثمائة وخمسين سنة وجميع عمره الشريف وهو الجلد الثانى تسعمائة وخمسون سنة (أصول التواريخ) .

• أول حائط على وجه الأرض حائط حران ودمشق ثم بابل ، لما هبط نوح عليه السلام من السفينة أشرف من تل حران فألقى حران فخطها ثم أتى دمشق فخطها فكانت حران أول مدينة خطت بعد الطوفان ثم دمشق (أوائل السيوطى) .

• أول مدينة مدنت فى زمن الصحابة رضى الله عنهم البصرة ، وهى مدينة عربية بنيت فى خلافته لم يعبد فيها صنم ولم يبن بها كنيسة كان بها سبعة آلاف مسجد (مسالك الممالك وعجائب البلدان) .

* أول مدينة مدنت بعد البصرة في الإسلام الكوفة يقال لها العلوية ، مدنها سيدنا على رضى الله عنه ، وفيها مشهد عظيم يقال فيه إمامنا على رضى الله عنه مع جم غفير رضى الله عنهم (عجائب البلدان) .

* أول موضع أهبط الله فيه آدم جبل يسمى الراهون في جزيرة من جزائر الهند في مملكة سرنديب بمكان يقال له الدهناء ، وعليه أثر قدمه عليه السلام وعلى القدم نور طاغ يخطف البصر لا يتمكن أحد أن ينظر إليه ، طول قدمه في الصخر سبعون شبراً وعلى الجبل ضوء كالبرق ، ولا بد لكل يوم فيه من المطر يغسل قدمه ، وإن آدم خطا من هذا الجبل إلى ساحل البحر خطوة واحدة وهي مسيرة يومين ، فلما أهبط خرَّ ساجداً على صخرة بيت المقدس ، وكان يسمح رأسه الشريف السحاب وكان يشرب من السحاب ، وكان طوله خمسمائة ذراع والله أعلم ، بأى ذراع ثم تضلع ستين ذراعاً وعلى هذه الصورة المقدرة المعينة يدخل أهل الجنة مقامهم الموعود في طول أبيهم آدم عليه السلام ، وهو أول من تضلع في الدنيا وعاش ألف سنة . قال ابن عباس وقيل لإستين عاماً التي كان وهبها لابنه خليفة الله داود عليهما السلام . ومات يوم الجمعة آخر النهار في الساعة التي خلق فيها والتي أخرج فيها من الجنة ، فلما مات نزلت الملائكة مع أكفانه ولوازمه من التجهيز ، وصلى عليه ابنه الوصى شيث بأمر جبريل عليهم السلام ، وأمره أن يكبر عليه ثلاثين تكبيرة ، وقيل أربعاً ، وفي الخبر صلى عليه شيث مع الملائكة بعدد كل صلاة تصلى على كل مسلم من أولاده الموقى إلى يوم القيامة ودفنه في غار جبل أبي قبيس ، وهو أول جبل خلق في الأرض ولهذا السر دفن فيه ، ثم أخرج نوح تابوته زمن الطوفان وحمله في السفينة ثم أعاده إلى مكانه . وذكر أهل التاريخ في تاريخ مكة شرفها الله أن نوحاً دفنه بعد الطوفان بمنى في مسجد الخيف قبل سرته الشريفة تحت المنارة التي فوق الباب

الكبير اليوم سنة سبع وتسعين وتسعمائة . . وردت على مبشرة في ذلك المكان الشريف ورأسى على عتبة الباب الكبير ليلة من الليالي مدة مجاورتي سنة ثلاث وثمانين خرجت ليلة مع بعض الإخوان من الفقراء المجاورين إلى منى ونمنا قدام باب المسجد فرأيت فيها يرى النائم كأنى أتكلم مع أبى عبد الله تارة فاستيقظت وأنا هائم وجل قائلاً بأعلى الصوت السلام عليك يا صفى الله السلام عليك يا آدم ، فتعجبت رفقاى الذين كانوا معى من ذلك وقالوا قد صبح واشهر عند بعض المؤرخين من الثقات كشفا ونقلنا أن عنصره الشريف وجسمه اللطيف في المحل المذكور والله أعلم .

كيف وجد الإنسان ؟

إن الإنسان بما غرز في طبيعته من قوى النظر والاستقراء والاستنتاج ، كلف منذ وجوده على هذه الأرض بفهم سر الوجود الذى يعيش فيه ، وإدراك ذاته المفكرة ومصيرها . فهو الكائن الأرضى الوحيد الذى شغلت باله هذه المسائل الضخمة واستوته حلولها المختلفة .

إن الإجابة على ما سبق في نظر البعض ، تختلف بين الدين والعلم ، وبين دين وآخر ، وبين عالم وآخر .

خلاصة ما ورد في الأديان

تذكر الأديان أن آدم أبو البشر وأن الله خلقه من طين وعلمه الأسماء كلها وأن آدم وحواء أهبطا إلى هذه الأرض من الجنة . بدليل قوله تعالى لآدم وحواء اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو (١٢٣ طه) . ويختلف المفسرون في

الجنة المذكورة . يقول أئمة الإسلام إنها في السماء ، وإن الجنة المقصودة هي جنة الخلد ، والخلد ليس للأرض ولا لشيء مما عليها . وتقول التوراة إن الجنة التي أسكن الله فيها آدم وحواء على الأرض ، وإنها على مقربة من عدن ، ولذلك سميت جنة عدن . وتروى الكتب المقدسة ما حدث بعد هبوط آدم وحواء على الأرض وقصة قابيل وهابيل ، وطوفان نوح وغرق كل من على الأرض إلا من أسكنهم نوح فلكه ، وأن الحياة بدأت تعود إلى الأرض بعد انحسار الطوفان .. بدأ النبات ينمو ، وبدأ تناسل الحيوان والإنسان ، وبدأ عصر جديد من عصور التاريخ الإنساني .

قصة الإنسان من الحفريات^(٥)

يقول رالف لتون في كتابه شجرة الحضارة الجزء الأول :
« إذا استثنينا بعض المناطق النائية في مواقعها الجغرافية أو المتأخرة في حضارتها ، فليس هناك من يشك في أننا من نسل نوع من أنواع الحيوان ، والمشكلتان الرئيسيتان هما تحديد نوع الحيوان ، ثم معرفة الطريق الذي سار فيه التطور الإنساني . وبهذه المناسبة يمكننا أن ننبذ في الحال أحد الأخطاء الشائعة بين الناس . فمن المؤكد أن الإنسان لم يتناسل من أئى نوع من أنواع القردة العليا التي مازالت باقية حتى الآن . فهذه القردة ليست أجدادنا ولكنها أبناء عمومتنا الذين افترق فرع أصولهم عن فرعنا منذ مليون سنة على الأقل » .

(٥) من كتاب شجرة الحضارة (قصة الإنسان منذ فجر ما قبل التاريخ حتى بداية العصر الحديث) تأليف رالف لتون أستاذ الدراسات الإثنوبولوجية بجامعة ييل - ترجمة دكتور أحمد فخرى الأنجلو المصرية .

وفى محاولتنا معرفة ما كان عليه أجداد الإنسان نرانا مضطرين للاعتماد على الأدلة المستقاة من بعض حفريات (fossils) ولكن نجد من قوة تلك الأدلة ما نعرفه عن عمليات التطور ، والصورة الواضحة التى نعرفها عن نظام تطور الرئيسيات بوجه عام . وبإلتينا نحصل على حفريات من بقايا الإنسان المبكر أو من حفريات أشباه الإنسان أكثر مما لدينا الآن . إذ يلوح أنه لن نحصل على كثير منها فى يوم من الأيام .

فإلى وقت حديث جداً بل بعبارة أدق حتى الوقت الذى بدأ فيه الإنسان يتعلم إنتاجه لغذائه كان ذلك الإنسان نوعاً من الكائنات نادر الوجود نسبياً . أما أجدادنا من أشباه الإنسان فكانوا أكثر ندرة لأنهم لم يكونوا مهيين لاستغلال بيئتهم كما كان يفعل أوائل الناس الحقيقيين ، لأن كل فرد كان يحتاج إلى خمسين ميلاً مربعاً لتقوم بأورده ، وهذا تقدير متواضع حتى فى المناطق الملائمة . وفضلاً عن ذلك فإن تحول العظام إلى حفريات يتطلب ظروفاً خاصة فإن الجسد الذى يترك ملقى فى العراء يصبح بدوره عنصراً اقتصادياً يضاف إلى ما تقدمه الطبيعة إذ تتولى أمر ذلك الجسد الجوارح من الصقور وأبناء آوى وجميع أنواع أكلة الرمم ، حتى البكتريا التى تتغذى على الدم وعلى نخاع العظام ، والقوارض التى تأتى فى النهاية على تلك العظام لأجل ما تحويه من الهلام (الجيلاتين) والجير . فإذا كان هيكل عظمى أن يظل محفوظاً فيجب أن يغطى وألاً يترك عارياً . ومعظم ما وصل إلينا من حفريات الحيوانات التى عاشت على الأرض ، ليست إلا بقايا لبعضها . وهى التى سقطت فى مستنقعات ، أو غاصت فى رمال متحركة أو غرقت فى أنهار واستقرت فى مياه راكدة حيث رسبت العظام فى القاع ، ودفنت فيه حتى أسلافنا من أشباه الإنسان ، فمن المحتمل أنهم دفنوا فى المستنقعات أو الرمال المتحركة ولكن بنسبة أقل ممن كانوا يعيشون معهم فى

المكان نفسه من الحيوانات التي كانت أكبر حجماً منهم وأقل ذكاءً ، على حين كانت الرئيسيات بوجه عام تتحاشى التزول إلى الماء ولا تميل إليه أبداً . وقد عثر على عدد قليل نسبياً من حفريات الحيوانات الثديية في الكهوف ، ولكن الكهوف لا توجد إلا في جهات قليلة ، وفي الوقت الذي كان فيه الإنسان قد أخذ يتطور كانت تقطنها ضواري مؤذية كبيرة الحجم من أكلة اللحوم .

ولكن بالرغم من كل تلك المصاعب فقد عثر على عدد لا بأس به من الحفريات الإنسانية وحفريات ما نسميه طلائع الإنسان Sub Human وليست هناك فائدة كبيرة من وراء محاولة وصف تلك الحفريات بالتفصيل ، وذلك لأنه لا تمضي بضعة شهور حتى يكشف شيء جديد منها ، فإذا ما كتبنا أى بيان بها فإن هذا البيان سيصبح بياناً ناقصاً عند الانتهاء من طبع هذا الكتاب ووصوله إلى أيدي القراء .

والأهمية الرئيسية لتلك الحفريات هي أنها توضح لنا اتجاه التطور الإنساني . إنها نقط على خط السير التطوري ومع تنقل البصر من واحدة إلى الأخرى يمكننا أن نمد هذا الخط التطوري من مرحلتنا الإنسانية راجعين إلى الوراء نحو الماضي البعيد ، فإذا ما أردنا أن نمد هذا الخط من أنفسنا نحو المستقبل تصبح المشكلة أكثر صعوبة لأنه في خلال نصف المليون سنة الأخيرة تمكن نوعنا الإنساني من عمل كل الملامات اللازمة باستخدام ذهنه بدلا من استخدامه لجراثيم الوراثة (الجينات genes) وكان هذا التغيير سبباً في ظهور كثير من هذه التغيرات الجديدة في مظهر التطور مما يجعل أى تنبؤ بما سيحدث في المستقبل ضرباً من ضروب التخمين .

ويتضح من جميع ما وقفنا عليه من معلومات حتى الآن أن أجدادنا

البعيدين كانوا قردة مذبذبين ، ويستطيع من يفضيهم هذا القول (٦) أن يجدوا بعض العزاء ، إذا أكدنا لهم أن مؤسسى فرع عائلتنا البشرية قد تلقوا تعليمهم فى أعلى فروع الأشجار . كانوا فى الغالب حيوانات صغيرة الحجم ، تراكض فوق فروع الأشجار على قوائمها الأربع كما تفعل القردة الحديثة وتثب من غصن إلى غصن ، وقد بسطت ذراعها ورجليها على استعداد لتقبض على أى شىء بأى واحدة من اليدين والقدمين . وبالرغم من أنه يرجح أنها كانت ذات ذنب فإنها لم تستخدمه فى أرجحة نفسها . فإن أرجحة القردة بوساطة ذيولها خاص بقردة الدنيا الجديدة ، وهى بعيدة عن الفرع الذى انحدرت منه العائلة البشرية فإذا قرأت فى أى وقت من الأوقات كتابا من كتب الأسفار يذكر فيه مؤلفه أنه رأى قردة أفريقية أو آسيوية تفعل ذلك فمن حقلك أن تنقل ذلك الكتاب من بين كتب الأسفار إلى قائمة القصص الخيالية .

وكانت أولى الخطوات للوصول إلى مرتبة الإنسان هى الخطوة التى بدأت عندها تلك الحيوانات الصغيرة الحجم تتخذ طريقة جديدة فى تنقلاتها . فبدلاً من أن تثب من غصن إلى غصن بدأت تطرح نفسها من واحد إلى آخر كما يفعل أحد الرياضيين بحلقات (العقلة) . ونتج عن ذلك تغييرات مهمة فى الجسم كانت بكل تأكيد الأساس لأكثر التطورات التى ظهرت فيما بعد فى تركيب الجسم الإنسانى ، فعند الأرجحة من غصن إلى غصن يتعلق الجسم من الذراعين ، وبهذا يكون فى حالة تختلف تمام الاختلاف عن الحالة التى يكون عليها جسم الحيوانات التى تمشى على أربع ، وقد نجم عن ذلك سلسلة من

(٦) نحن من يفضيهم هذا القول وقد عرضناه فقط لبيان مدى التضارب فى النظر إلى مسألة الخلق عند بعض علماء الغرب.. ونحن لا نؤمن إلا بما جاء فى القرآن (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم). الآية (التين).

التعديلات في تركيب الجسم ، إذ أصبحت القامة أقصر من ذى قبل . وأكثر اكتنازاً ليتيسر تأرجحها مسافات طويلة وهي متعلقة بالذراعين مثل جسم ثقيل معلق في نهاية خيط . كانت الأحشاء ثابتة في أماكنها بواسطة عضلات البطن التي تشبه خيط (المقلاع) فأخذ الحوض على عاتقه القيام بمهمة حمل الأحشاء ، وأصبح أعمق مما كان قبل ذلك وأكثر استدارة . أما مفاصل الكتف التي لم يكن لها من قبل إلا قدرة محدودة على الدوران الحر ، كما نرى ذلك في القردة في الوقت الحالي ، فقد أصبحت أكثر ليونة حتى صار لها هذا النوع من المفاصل التي تجعل في مقدور الإنسان في الوقت الحالي رمي الكرة كما نرى في لعبة كرة (البيزبول) . انتهى كلام رالف لتون .

تعليق على رأى رالف لتون

وهكذا عزيزى القارئ يؤكد كتاب الغرب ما سبق أن قلناه بدءاً من أن الإنسان لا يعرف نفسه مع أنها أقرب الأشياء إليه .. فقد تدلى به فكره كما رأينا في كتاب شجرة الحضارة حتى رضى لنفسه أن ينحدر من سلالة القردة ثم راح يلتمس من التحليلات ما يحاول به أن يؤكد صحة رأيه هذا .. تعصبا وجهلا ..

ونحن نلتمس العذر لرالف لتون وغيره ممن أخطأوا الطريق .. ذلك أنهم ممن جرفتهم الحياة المادية فباتوا يتصورون الإنسان مجرد مخلوق شائه حفيداً للقردة ولم يفتح الله عليهم بما فتح به علينا حين هدانا للقرآن نلتمس فيه النور ونعرف منه الفرق بين الحق والباطل .

(أو من كان ميتًا فأحييناه وجعلنا له نورًا يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها) ... (١٢٢ الأنعام) .
كلا يارب .. لسنا ورالف لتون في هذا سواء ..
وسوف يرى القارئ فيما سنطرحه عليه عن حقيقة الإنسان في هذا الكتاب
وما يليه من السلسلة ما يدفع هذا الباطل الذي سقط في بثره كثيرون غير رالف
لتون من أشهرهم شارل دارون صاحب نظرية التطور.

نظرية دارون^(٧)

يدعى دارون أن الإنسان تطور من سلالات حيوانية سبقت كانت القرد
آخرها ، فقد قدم دارون رسالة لجيله ورد فيها مايلي :
« حسبكم أن تدرسوا الطريقة التي تنشئ بها الطبيعة وينشئ بها الإنسان
صورًا جديدة من الكائنات الحية في عالم اليوم ، ليكون لكم من هذا تفسير
معقول للطريقة التي بلغت بها الأرض في غضون تاريخها الماضى الطويل . هذا
التعدد العظيم في نباتها وحيوانها وإنسانها ولغاتها البشرية .. » الخلاصة أن
دارون سعى إلى إقناع النوع البشرى بأن جنة عدن مازالت باقية وأنها نحن
المقيمون فيها لا نزال قادرين على دراسة طريقة الخلق والرد على السؤال الخاص
بكيفية وجود السلالات البشرية .

ويقر دارون أنه لا يوجد من بين من يعيشون على الأرض من الرجال
والنساء والأطفال اثنان متشابهان تشابها كليًا ولا تستطيع الطبيعة أن تخرج صورة

(٧) شارل دارون (١٨٠٩/١٨٨٢) ولد في مدينة شوسبرى واهتم بالصيد والكلاب حتى قال له والده يوما : ستكون عارًا على عائلتك وعلى نفسك ولم يفلح في تعلم الطب فانتقل إلى كمبردج واهتم بالحشرات وتعرف بالعالم النباتي هتسلر واستقر أخيرًا في مدينة دارون قرب لندن .

طبق الأصل من أى كائن حى ، وكل ميلاد جديد هو تجربة جديدة فى الخلق .
جعل تشارلز دارون من هذه الحقيقة دعامة تستند إليها نظريته فى التطور كما
استند إلى دعامة ثانية هى عامل المنافسة ، فعالم الأحياء يسير على سنة من
التنافس لا تبدل ، وأن جميع الكائنات الحية تنقرض ما عدا الصالح منها
للبقاء .

ونخرج دارون^(٨) من هذا كله أن التطور أو الخلق مازال مستمرًا فى عالم
الإنسان لأن كل طفل يولد فى العالم يحمل معه مجموعة جديدة من السمات
الجثائية والصفات العقلية ، وأن بعض هذه السمات والصفات يرفع من شأن
أصحابه ويؤهلهم للفوز فى الكفاح المستمر ، وبعض الصفات يحط من شأن
أصحابه ، حتى مال من يتصف به إلى الانقراض .

تعليق على رأى دارون

جاء العلم بأكثر من دليل على فساد نظرية التطور ، فالعلم الحديث الذى
أشرق على العالم منذ ثلاثة قرون كشف عن عجب ما صنع الصانع ، كشفه فى

(٨) من أهم مؤلفاته الكتب الآتية :

أصل الأنواع - تسلسل الإنسان ومظهر التأثيرات فى الإنسان والحيوان . وتدور فلسفته حول مذهب
التطور وقد استعار بعض أفكاره عن فيلسوف طبيعى فرنسى هو (لامارك) . وتتلخص نظريته فيما يأتى :
جميع الأنواع الحيوانية والنباتية الماضية والحالية متسلسلة بطريقة التطور والتعاقب من ثلاثة أو أربعة
أصول ، وربما كانت من أصل واحد إذ يقول : (إن المقارنة تذهب بى إلى أبعد من ذلك أى إلى الاعتقاد
بأن جميع الحيوانات وجميع النباتات تسلسلت من أصل واحد) .
والنوع الإنسانى لم يسلم بحسب نظرية دارون من قانون التطور فهو متسلسل من فرد وسار فى سبيل
الارتقاء إلى أن صار كما هو الآن .
يبد أن دارون قرر أنه لا يبحث عن مصدر القوة العقلية .

النبات وهو صنوف لا عداد لها ، وكشفه في الحيوان وهو أجناس لا حصر لها ، وكشفه في الإنسان أسمى المخلوقات وأرقاها .

وبرغم ما أثبتته العلم الحديث فما زالت هناك فئة ضالة تقول بالخلق والتخلق ، ومن هذه البقية الإنجليزي جوليان هكسلي الذي ألف كتاباً أسماه الإنسان يقوم وحده Man Stands Alone وهو في ذلك يسير على درب سار عليه جده من قديم فجده توماس هكسلي (١٨٢٥ / ١٨٩٥) صاحب دارون وناصره في القرن الماضي - وقد انبرى لهذا العالم الضال عالم آخر هو كريس موريسون الذي ألف كتاباً أسماه الإنسان لا يقوم وحده Man Does Not Stand Alone أراد بذلك أن يقول إن الإنسان يقوم في هذه الدنيا ومعه الله . وقد أثبت هذا العالم بأدلة علمية قاطعة فساد الرأي القائل بالخلق والتخلق . وحسبنا أن نذكر ردّ موريسون على هكسلي لما لذلك من مغزى . وكفى .

هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً

(هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء) (٢٩ البقرة)
اختص الله سبحانه الإنسان بالرعاية والعناية فأفرد لبيان خلقه العديد من الآيات في كتابه الكريم .

والقرآن يعلمنا أن الله قد سخر للإنسان هذا الكون ويسر له الانتفاع به وأخضع له ما فيه من الأرض والسماء وما بينها^(٩) . فما هي قصة هذا الخلق كصفحة في كتاب خلق الإنسان (الخليفة) ؟ .

إن أول ما خلق الله هو القلم ثم أمره بأن يكتب ما هو كائن وأنه سبحانه خلق الأرض قبل السماء (ثم السجدة) ولكن قول قتادة : أن السماء خلقت

(٩) في تفسير القرطبي ج ١ (سورة البقرة ص ٢١٨ وما بعدها) .

قبل الأرض (أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها) (٢٧ النازعات) ثم قال (والأرض بعد ذلك دحاها) (٣٠ النازعات) وقال مجاهد وغيره من المفسرين : إنه تعالى أبيس الماء الذى كان عرشه عليه فجعله أرضاً وثار منه دخان فارفع فجعله سماء ، فصار خلق الأرض قبل خلق السماء ثم قصد أمره إلى السماء فسواهن سبع سموات ثم دحا الأرض بعد ذلك من مكة .. وكانت إذ خلقها غير مدحوة وقول قتادة يخرج على وجه صحيح إن شاء الله تعالى وهو أن الله تعالى خلق أولاً دخان السماء ثم خلق الأرض ثم استوى إلى السماء وهى دخان فسواها ثم الأرض بعد ذلك دحاها .

ومما يدل على أن الدخان خلق أولاً قبل الأرض ما رواه السدى عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ فى قوله عز وجل :

(هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات) (٢٩ البقرة) قال إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئاً قبل الماء ، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً فارفع فوق الماء فسميا عليه فسماه سماء ثم أبيس الماء فجعله أرضاً واحدة ثم فتقها فجعلها سبع أرضين فى يومين (الأحد والاثنين) فترلزت الأرض فأرسل عليها الجبال فقرت فالجبال تفخر على الأرض (وألقى فى الأرض رواسى أن تمد بكم) (١٥ النحل) وخلق الجبال فيها وأقوات أهلها وشجرها وما ينبغى لها فى يومين (الثلاثاء والأربعاء) .. (قل أنتمكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين) (٩ و ١٠ فصلت) .

يقول : من سأل فهكذا الأمر (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) (١١)

فصلت) وكان ذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس فجعلها سماء واحدة ثم فتقها فجعلها سبع سموات في يومين (الخميس والجمعة) وإنما سمي يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض (وأوحى في كل سماء أمرها) (١٢ فصلت) قال : خلق في كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذى فيها من البحار وجبال البرد ومالا نعلم ثم زين السماء الدنيا بالكواكب فجعلها زينة وحفظاً تحفظ الشياطين فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش ، قال : فذلك حين يقول : (خلق السموات والأرض في ستة أيام) (٥٤ الأعراف) ويقول : (كانتا رتقا ففتقناهما) (٣٠ الأنبياء) .

أيام الخلق الستة

أيام أو مراحل (١٠)

إن كلمة يوم كما يفهم من التوراة تعرف المسافة الزمنية بين إشراقين متوالين للشمس أو غروبين متوالين وذلك بالنسبة لسكان الأرض . وإن اليوم وقد تحدد بهذا المعنى يرتبط وظيفياً بدوران الأرض حول نفسها .. وواضح تماماً أنه من المستحيل منطقياً أن نتحدث عن الأيام بهذا المعنى الذى تحدده على حين أن العملية المركبة التى ستؤدى إلى ظهورها أى الأرض ودورانها حول الشمس ، لم تكن قد أنشئت بعد عند أولى مراحل الخلق وذلك بحسب رواية التوراة . أما إذا رجعنا إلى غالبية ترجمات القرآن فإننا نقرأ فيها - بالتجانس مع ما

(١٠) راجع كتاب المؤلف الفرنسى (موريس بوكاي) بعنوان La Bible. Le Coran et La Science الذى ترجم إلى العربية وطبع على نفقة الملك الراحل فيصل بن عبد العزيز - طبعة دار المعارف سنة ١٩٧٧.

تعلمنا التوراة به - إن القرآن يقول هو أيضاً بامتداد عملية الخلق على مدة ستة أيام ولا يمكن بالطبع أن نعتب على المترجمين أنهم قد ترجموا كلمة يوم بالكلمة المعادلة لأكثر المعاني شيوعاً للكلمة العربية . وهكذا تعبر عنها الترجمات عادة مادامنا نقرأ في سورة الأعراف الآية ٥٤ (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام) .

وقليلة حقاً ترجمات القرآن أو التعليقات التى تنبه إلى أن كلمة أيام ، فى الواقع ، يجب أن تفهم على أنها تعنى (مراحل) بل لقد ادعى البعض القول بأنه إذا كانت نصوص القرآن الخاصة بالخلق قد قسمت مراحل الخلق فى أيام فقد كان ذلك يهدف عن قصد إلى استئناف ما كان الكل من يهود ومسيحيين فى فجر الإسلام يعتقد به وذلك تجنباً لمجابهة اعتقاد منتشر .

الواقع ودون أى رفض مطلق لهذه الطريقة فى الرؤية ، ألا يمكن أن نرى المشكلة عن قرب أكثر وأن تفحص المعانى الممكنة فى القرآن نفسه وفى لغة العصر عامة لتلك الكلمة التى يستمر عدد من المعلقين فى ترجمتها بيوم . (الجمع أيام) .

إن الكلمة مفردة تنحو إلى الدلالة على النهار أكثر منها للدلالة على فترة زمنية بين غروب الشمس وغروبها فى اليوم التالى . أما إذا جمعت فلا تعنى فقط أيام أى وحدات تتكون كل منها من أربعة وعشرين ساعة ، بل تعنى أيضاً دهرًا طويلًا أو فترة من الزمن غير محدودة وإن طالّت . ومن ناحية أخرى فعنى فترة زمنية التى يمكن للكلمة أن تدل عليه موجود أيضًا فى القرآن .

ففى الآية ٥ من سورة السجدة : (فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) .

وبما هو جدير بالملاحظة أن الآية السابقة على هذه الآية تذكر بالتحديد

الخلق في ستة أيام . كذلك نجد في الآية ٤ من سورة المعارج : (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) .

وكون أن كلمة يوم كان يمكن أن تدل على فترة زمنية تختلف تمامًا عن تلك التي نعطيها لمعنى اليوم قد بهر كثيرًا من المفكرين القدماء الذين كانوا لا يملكون بالطبع أى معارف من تلك التي نملكها اليوم عن عدة مراحل تكون الكون . وفي القرن السادس عشر الميلادى ظن (أبو السعود) - بالاستناد إلى دورة الأرض - أن من الواجب تصور تقسيم (مراحل) ليس إلى أيام بالمعنى الذى نفهم عادة بل إلى (نويات) .

ومن المفسرين المحدثين (يوسف على) سنة ١٩٣٤ في تفسيره لكل آية تعالج مراحل الخلق يصر على ضرورة اعتبار أن الكلمات التي تفسر في سياق آخر بمعنى أيام تفسر هنا في الواقع بمعنى (فترات طويلة) ، أو (عصور) .

وقد أثبت العلم الحديث بشكل قاطع أن مراحل الخلق هذه فترات زمنية طويلة جدًا .. وهو أمر لا يناقض الآيات التي يتحدد فيها الخلق بستة أيام إذا ما نحن أدركنا أن الآية ٥ من سورة السجدة :

تذكر (في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) . كذلك فإن الآية ٤ من سورة المعارج تذكر : (... في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) . ولنا أن تنبه إلى أن التوراة تقول إن الله خلق الخلق في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع من بعد العمل وأن على كل يهودى أن يجعل يوم السبت يوم الراحة .. ولكن الآية ٣٨ من سورة (ق) ترد على ذلك ردًا واضحًا حيث يقول سبحانه وتعالى :

(ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من

لغوب) ، (اللغوب : التعب والنصب) فالقرآن يعلمنا فيما يتعلق بالخلق أن هناك نقاطاً هامة هي :

- ١ - وجود ست مراحل للخلق عمومًا .
- ٢ - تداخل مراحل خلق السموات مع مراحل خلق الأرض .
- ٣ - خلق الكون ابتداءً من كومة أولية فريدة كانت تشكل كتلة متاسكة تفصلت بعد ذلك .
- ٤ - تعدد السموات وتعدد الكواكب التي تشبه الأرض .
- ٥ - وجود خلق وسيط بين السموات والأرض .

وبعد أن يعرض مورييس بوكاي بعض معطيات العلم الحديث عن تكوين الكون (النظام الشمسي - المجرات - تكوين وتطور المجرات والنجوم والنظم الكوكبية - مفهوم تعدد العوالم) .. إلخ يقول : « .. فإنه لا يوجد على أى حال أقل تعارض بين المعطيات القرآنية الخاصة بالخلق وبين المعارف الحديثة عن تكوين الكون . ذلك أمر يستحق الالتفات إليه فيما يخص القرآن ، على حين قد ظهر بجلاء أن نص العهد القديم الذى نملك اليوم قد أعطى عن هذه الأحداث معلومات غير مقبولة من وجهة النظر العلمية » .

كذلك يتحدث المؤلف الفرنسى عن علم الفلك فى القرآن فيقول :
« ... إن الإشارات التى وردت فى القرآن من علم الفلك منذ حوالى أربعة عشر قرنًا هى حدث جديد فى الترتيل الإلهى فلا الإنجيل ولا العهد القديم يعالجان ترتيب الكون (باستثناء المفاهيم التى رأينا مجموع عدم صحتها فى رواية التوراة عن الخلق) . أما القرآن فهو ينظر طويلا فى هذا الموضوع ، فما يحتويه هام ، ومالا يحتويه هام أيضًا » . ثم يستطرد فيقول :

وعلى حين وصفت التوراة الشمس والقمر بمنيرين مضيئة صفة الكبر إلى الأولى والصغر إلى الثاني يخص القرآن كلا منهما بفروق غير تلك التي تتعلق بالحجم فيصف الشمس بأنها سراج وهاج والقمر بأنه جرم منير أى أنه ليس مضيئاً بذاته بل هو يعكس الضوء الذى يستقبله من الشمس كما أنه كوكب خامل (ذلك على الأقل بالنسبة لقشرته الخارجية) . لا شيء إذن في القرآن يناقض كل ما نعرف اليوم عن هذين الجرمين السماويين .

وبعد .. هذا بعض ما رأينا توضيحه في هذا الصدد ، ولو أننا لا نود أن نسترسل مع بوكاى في تفصيلاته مع النجوم والكواكب والسماء الدنيا والبنية السماوية ومدارى الشمس والقمر وتنقلهما في الفضاء ، وتعاقب النهار والليل وتوسع الكون وغزو الفضاء ودورة الماء والبحار وتضاريس الأرض والجو الأرضى والكهرباء الجوية والظل ... إلخ) حتى لا ينحرف بنا المدار عن فلك حقيقة الإنسان وإنما أردنا بهذه الإشارات التمهيد بوصف خلق الكون الذى وجد الإنسان عليه ليحمره ويسخره لنفسه . ولذا نقف عند هذا الحد حيث يأتي مقام ذكر قصة آدم أبو البشر أو خلق الإنسان .

البَابُ الثَّانِي

أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مِنْ أَنْتَ؟

(إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه
من تراب ثم قال له كن فيكون)

(٥٩ آل عمران)

«كلكم لآدم وادم من تراب» .

(حديث شريف)

أيها الإنسان .. من أنت ؟

ما حقيقتك ؟ ومن تكون ؟ لو سأل الإنسان نفسه هذا السؤال الواضح البسيط لأعياه الجواب . ذلك أن بعض الناس قد تتداعى إلى أذهانهم إجابات سطحية فجأة وتافهة ، فقد يعرف أحدهم نفسه باسمه ونوعه وجنسه وشكله .. وقد يرى غيره أن ذلك التعريف به قصور فيضيف إليه مؤهلاته العلمية وعمله وعمل سكنه وحالته الاجتماعية .. وقد يضيف ثالث معلومات أخرى حتى يستطرد في سرد القصص توضيحاً وتفصيلاً .. ولكن حتى ذلك الثالث الذى يظن أنه شرح فأوفى وجمع فأوعى .. سوف يضحك من نفسه طويلاً إذا علم أن الإجابة على ذلك السؤال تقتضى منه أن يدفع من عمره بضعة سنوات بحثاً وتفكيراً :

يقول العقاد فى كتاب له بعنوان (الإنسان فى القرآن) (١).

(استمع الناس إلى المادية التاريخية فقالت لهم إن الإنسان عملة (اقتصادية) فى سوق الصناعة والتجارة تملو وتهبط فى طبقاتها بمقياس العرض والطلب وصفقات الرواج والكساد . أما الإنسانية فقد أنصتت إلى المادية التاريخية فقالت لها إنها شىء لا وجود له مع طوائفها التى تخلقها الأسعار والأجور .

واستمع الناس إلى الفاشية فقالت لهم إن الإنسان واحد من عنصر سيد أو عنصر مسود وإن أبناء الإنسانية جميعاً عبيد للعنصر السيد والعنصر السيد قبل

(١) سبق الإشارة .

ذلك عبد للسيد المختار بغير اختيار .

واستمع الناس إلى العقلية فقال لهم قائل منها إن (إنسانيتهم) كذلك شيء لا وجود له ووهم من أوهام الأذهان ، وأن الشيء الموجود حقاً هو الفرد الواحد ، وبرهان وجوده حقاً أن يفعل ما استطاع من نفع أو أذى كلما أمن المغبة من سائر الأفراد والأحداث .

وغير جديد ما استمعوه من أهل العقائد الإلهية عن مكان هذا الإنسان من الأرض والسماء ومكانه من إخوته في آدم وحواء . .

سمعوا أنه روح وجسد .. ودنيا وآخرة .. ينجو شطره بمقدار ما يهلك شطره ويصح له الوجود بمقدار ما صح له من عقبي الفناء .

وسمعوا أنه إنسانان : إنسان صحيح مقبول .. وإنسان زائف مدخول - صحيح مقبول .. كل من اجتبه موله على هداة - وزائف مدخول .. كل من خلقه ونفاه ولعله لم يخلقه ودعاه إليه من دعاه .

وسمعوا أن الإنسان يولد بذنب غيره ويموت بذنب غيره .. ويبرأ من الذنب بكفارة غيره ويمضي بين النعمة واللعة بقدر من الأقدار لا نصيب له فيه من عصيان أو طاعة ومن إباء أو اختيار .

وسمعوا من القرآن عن بني الإنسان غير ذلك :

فهم متدبرون يستمعون إلى العقل .. كما يستمعون إلى الإيمان إذا اطمأنوا وثبتوا على اطمئنانهم إليه .. فالإنسان في القرآن هو الخليفة المستول بين جميع ما خلق الله يدين بعقله فيما رأى وسمع ويدين بوجوده فيما طواه الغيب فلا تدركه الأبصار والأسماع و (الإنسانية) من أسلافها إلى أعقابها أسرة واحدة لها (نسب واحد ورب واحد ..) .

ومن آياته أن خلقكم من تراب

من بين سور القرآن البالغ عددها مائة وأربعة عشر سورة تحدثت أكثر من سبعين سورة منها عن خلق الإنسان وعن أطوار هذا الخلق المعجز البديع وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر هذه الآيات من كتاب الله :

- (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) (١ الإنسان) .

- (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) . (٣٠ البقرة)
- (وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمإ مسنون .
فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين، فسجد الملائكة كلهم أجمعون) . (٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ الحجر)

- (أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً) . (٦٧ مريم)
- سبحانه الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وبما لا يعلمون) . (٣٦ يس)

- (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) . (٢٠ الروم)

- (والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا) . (١١ فاطر)
- (هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً) . (٦٧ غافر)
- (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) . (٥٥ طه)

- وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه) . (٧ ، ٨ ، ٩ السجدة)
- (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نقطة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقه فخلقنا العلقه مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) . (١٢ ، ١٣ ، ١٤ المؤمنون) .
- (هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده) . (٢ الأنعام)
- (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون) . (٢٦ الحجر)
- (خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار) . (١٤ ، ١٥ الرحمن)
- (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها) . (١٨٩ الأعراف)
- (وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً) . (٥٤ الفرقان) .
- (فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب) . (٥ الطارق)
- (خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء) . (النساء)
- (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً) . (٢ الإنسان) .
- (قتل الإنسان ما أكفره ، من أى شيء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره ،

ثم السبيل يسره . ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره) . (١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ عبس)

- (وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون) . (٧٩ المؤمنون)

- (وقد خلقكم أطواراً) . (١٤ نوح)

- (خلق الإنسان من علق) . (٢ العلق) .

- (الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة) . (٥٤ الروم)

- (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا) . (١٧٢ الأعراف) .

- (الذى خلقك فسواك فعدلك . فى أى صورة ما شاء ركبك) . (٧ ، ٨

الانفطار)

- (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) . (٤ التين)

هذه بعض الآيات التى توضح لنا خلق الإنسان ومصادره ومراحلها غير أن الله سبحانه وقد خص الإنسان برعايته ينزل فى القرآن آيات أخرى توضح لنا كيف أن الله قد خلق الإنسان متنازلاً بين السما والإسفاف عنده الاستعداد للترقى .: كذا الاستعداد للتدلى .. والآيات التالية على سبيل المثال أيضاً تبين أن الإنسان فى الذروة من الكمال المقدور له بما استعد له من التكليف :

- (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) . (٤ التين)

- (ولقد كرّمنا بنى آدم) . (٧٠ الإسراء)

- (وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل فى الأرض خليفة) . (٣٠ البقرة)

- كذلك فإن الآيات التالية على سبيل المثال تقرر أن الإنسان فى الدرك

الأسفل من الحلقة إذا هو انحدر :

- (أولئك كالأنعام بل هم أضل) . (١٧٩ الأعراف)
- (إن الإنسان لظلوم كفار) . (٣٤ إبراهيم)
- (إن الإنسان لربه لكتود) . (٦ العاديات)
- (إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى) . (٦ ، ٧ العلق)
- (إن الإنسان لئى خس) . (٢ العصر)
- . وقد يذكر الإنسان بالصفتين فى الآية الواحدة :
- (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين) .
- (٤ ، ٥ التين) .

على أن الآيات التى قصر فيها القول على خلق الإنسان لم تخل مما يوحى بأن أطوار خلق الإنسان السوى هى إعدادة لما هو أشرف من حياته الحيوانية عسى أن ينظر فى الخلق فىرى فيه آثار الخالق الذى لا تدركه الأبصار والاسماع ..

* * *

ورد فى مختصر صحيح مسلم - كتاب ذكر الأنبياء وفضلهم - باب فى ابتداء خلق آدم عليه السلام : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال : « خلق الله عز وجل التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم العصر من يوم الجمعة . فى آخر الخلق .. فى آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل » .

فكرة خلق الإنسان عند بعض الأمم

ارتبطت فكرة الخلق دائماً بإطار دينى منذ فجر التاريخ - فى الهند مثلاً :

نجد الأسفار المعروفة بالكتب الفيدية التى نقرأ فيها نصوصا كهذا النص :
« إن الإله الأكبر قد خلق الأرض بكلمة ساحرة فأمرها بأن توجد فبرزت
على الفور إلى حيز الوجود » .

وفى الصين واليابان نجد نصًا يقول :

« إن إله السماء هو الذى يصرف الأكوان ويدبر أمور الإنسان » .

وفى تراث الفرس نجد فى عقيدتهم :

« الله هو أسمى الذى يتجلى فى أرواح عليين وهو أقوى القوى فى عالم
المللكوت ومن أسمائه الخلاق .. »

لكن الفكرة عند الفراعنة تبدو أكثر وضوحًا وتفصيلًا ونرى ذلك فى
القصيد المسماة قصيدة إخناتون وقد جاء فيها :

« أيها الإله الأوجد ، الذى ليس لغيره سلطان كسلطانه ، يا خالق الجرثومة
فى المرأة ، يا صانع النطفة فى الرجل ، يا واهب الحياة للابن فى جسم أمه ،
ويا من يهدئه فلا يبكى ، ويا من يغذيه حتى فى الرحم ، يا واهب الأنفاس ،
يا من ينعش كل ما يصدفه ، وحين يخرج من الجسم فى يوم مولده تفتح أنت
فاهه لينطق وتمده بحاجاته ، والفرخ حين يزقزق فى البيضة تنبه النفس فيها
لتحفظ له حياته ، فإذا ما وصلت به إلى النقطة التى عندها تكسر البيضة خرج
من البيضة ليغرد بكل ما فيه من قوة - ويمشى على قدميه ساعة يخرج منها - ألا
ما أكثر أعمالك الخافية علينا - أيها الإله الأوجد الذى ليس لغيره سلطان
كسلطانه ، يا من خلقت الأرض كما يهوى قلبك حين كنت وحيدًا - إن الناس
والأنعام كبيرها وصغيرها وكل ما على الأرض من دابة وكل ما يمشى على
قدميه ، وكل ما هو فى العلاء ويطير بجناحيه - إنك تضع كل إنسان فى موضعه
وتمددهم بحاجاتهم لتحفظ حياة الناس » .

وهذه النماذج الثلاثة من النصوص ليست كل ما لدى الإنسانية مما يبرز أن
الفكرة عاشت في إطار ديني .. ولكنها بعض الحصاد ..
وسوف نمضي بالقارئ عبر صفحات الكتاب لنرى أن تلك النصوص التي
ذكرناها كانت مجرد إشارة لإرهاصات الفكرة في خطواتها البدائية ، حتى جاء
القرآن الكريم ليقص علينا القصة صريحة وصحيحة .. فتبارك الله أحسن
الخالقين .

آدم أول الناس والكعبة أول بيت

بدء الإنسانية في مكة حول البيت العتيق^(١)

قال أبو الفتح الشهرستاني في صدر كلامه عن (آراء العرب في الجاهلية
الجزء الثالث من القسم الثاني ص ١٢٢٠ - ١٢٢١ من كتاب الملل والنحل) .
« ... وقبل أن نشرع في مذاهبهم نريد أن نذكر حكم البيت العتيق -
حرسه الله تعالى - ونصل بذلك حكم البيوت المبنية في العالم ، فإن منها ما بنى
على الدين الحق قبله للناس ، ومنها ما بنى على الرأي الباطل فتنه للناس » .
وقد ورد في التتريل : (إن أول بيت وضع للناس الذي ببكة مباركاً وهدي
للعالين) (٩٦ آل عمران) . وقد اختلفت الروايات في أول من بناه : قيل :
إن آدم - عليه السلام - لما أهبط إلى الأرض ، وقع إلى سرنديب من أرض
الهند ، وكان يتردد في الأرض متحيراً بين : فقدان زوجته ، ووجدان توبته ،
حتى وافى حواء - عليها السلام - بجبل الرحمة من عرفات وعرفها ، وصار إلى
أرض مكة ، ودعا وتضرع إلى الله تعالى ، حتى يأذن له في بناء بيت يكون قبلة
لصلاته ، ومطافاً لعبادته ، كما كان قد عهد في السماء من البيت المعمور ،

(١) عن عجلة في تاريخ الأديان لمحمد بن فتح الله بدران .

الذى هو مطاف الملائكة ، ومزار الروحانيين فأنزل الله تعالى عليه مثال ذلك البيت على شكل سرادق من نور ، فوضعه مكان البيت ، وكان يتوجه إليه ، ويطوف به .

ثم لما توفى ، تولى وصيه « شيث » عليه السلام بناء البيت من الحجر والطين على الشكل المذكور ، حذو القذة بالقذة .

ثم لما خرب ذلك بطوفان نوح - عليه السلام - وامتد الزمان حتى غيض الماء ، وقضى الأمر ، وانتهت النبوة إلى إبراهيم الخليل - عليه السلام - بنى مع إبراهيم ابنه إسماعيل ذلك البيت ، وذلك قوله تعالى : (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) (١٢٧ البقرة) .

وهكذا : كان مسقط رأس الإنسانية فى « مكة » البلد الحرام ، وحول « الكعبة » بيت الله الحرام فى قلب بلاد العرب .

وهنا نسل « آدم » عليه السلام ، وهنا دبت السلالة الأولى لجميع الأنام ، وهنا تربت الأصول الأولى للرسول الخاتم سيد ولد آدم ، وهنا بقى العرب حتى بعث فيهم نبي الإسلام : (بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) (٣٣ التوبة) .

« آدم » أول الناس فى أرض الله ، و « الكعبة » أول بيت للناس وضعه الله ، وهكذا يتعبد أول خلفاء الله ، فى بيت الله .. ثم فرض الله على الناس جميعاً حج بيته هذا ، من استطاع إليه سبيلا .

(إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) . (آل عمران ٩٦ - ٩٧) .

وقد خص الله هذا البيت بالشرف والكرامة ، وأضافه إلى نفسه ، فكان :
بيت الله ، والبيت الحرام ، والبيت العتيق ، والبيت المبارك ، وهدى للعالمين .
كما خص « مكة » بالفضل والرعاية ، لأنها بلد بيته ، ومهبط وحيه ،
ومنبت خاتم رسله .. فأقسم بها ، وتكفل سبحانه بأمنها ، وخصها بالعرب أهلا
لها ..

فقال تعالى : (والتين والزيتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الأمين ..)
(١ - ٣ التين) ، وقال لحبيبه محمد عليه السلام : (لا أقسم بهذا البلد ،
وأنت حل بهذا البلد .) (١ ، ٢ البلد) .

وهذا رب العالمين يقول عن البيت الحرام ، ومكة الأمين : (وإذ جعلنا
البيت مثابة للناس وأمنًا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلًى وعهدنا إلى إبراهيم
 وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود * وإذ قال إبراهيم
رب اجعل هذا بلدًا آمنًا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم
الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس
المصير ، وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك
أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا
مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو
عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) .
(البقرة ١٢٥ - ١٢٩) .

بل لقد أسكن إبراهيم الخليل ولده إسماعيل الذبيح عليهما السلام ، في
مكان هذا البلد الحرام ، وكان قفراً بقلعاً ، لا ماء فيه ولا نبات ولا شجر ،
ليقيم إسماعيل وينوه فيه الصلاة ، وليكون : قبلة للمؤمنين ، وهدى للعالمين ...
(وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنى أن نعبد

الأصنام، رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ، ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ، ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ، الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربي لسميع الدعاء ، رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء ، ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) . (إبراهيم ٣٥-٤١)

وأخيراً ، يقول الله سبحانه على لسان الرسول الخاتم والنبي العربي عليه السلام :

(إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين ، وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين ، وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون) . (المل ٩١-٩٣)

قصة بداية الإنسان في القرآن

فالقرآن يحكي لنا في سورة البقرة قصة بداية خلق الإنسان واضحة صحيحة .

يقول تعالى : (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) وجاعل هنا بمعنى خالق ذكره الطبري عن أبي زروق .. والأرض قيل : إنها مكة ولذلك سميت أم القرى روى عن ابن سابط عن النبي ﷺ قال :

(دحيث الأرض من مكة ^(٢) . وخليفة أى يخلف من كان قبله من غير الملائكة أو من الملائكة فى الأرض . والمعنى بالخليفة هنا (الخليفة ^(٣)) فى قول زيد بن على) أما فى قول ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل التأويل (آدم عليه السلام) فهو أول رسول إلى الأرض كما فى قول أبى ذر : قلت يا رسول الله أنبياءاً كان مرسلًا ؟ قال نعم الحديث .. ويقال : لمن كان رسولاً ولم يكن فى الأرض أحد ؟ فيقال : كان رسولاً إلى ولده وكانوا أربعين ولدًا فى عشرين بطنًا فى كل بطن ذكر وأنثى وتوالدوا حتى كثروا . (خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) . وأنزل عليه تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وعاش تسعمائة وثلاثين سنة - هكذا ذكر أهل التوراة - وروى عن وهب بن منبه أنه عاش ألف سنة - والله أعلم .

وقيل إن الملائكة لما سمعوا لفظ خليفة فهموا أن فى بنى آدم من يفسد فقالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها فعمموا الحكم بالفساد والمعصية فقال الله لهم : إني أعلم مالا تعلمون ، وحقق ذلك سبحانه بأن علم آدم الأسماء كلها وكشف للملائكة عن مكنون علم آدم الذى علمه له ويحتمل أن يكون بالإلهام أو بواسطة ملك وهو جبريل ولولا أن الله كشف لآدم علم تلك الأسماء لكان أعجز من الملائكة :

وآدم عليه السلام يكنى أبا البشر وقيل : أبا محمد . كنى بمحمد خاتم الأنبياء ﷺ قاله السهيلي .. وقيل كنيته فى الجنة أبو محمد وفى الأرض أبو البشر وأصله بهزتين (آدم) لأنه أفعّل إلا أنهم لينوا الثانية (عن الأخفش) واختلف فى اشتقاقه .. قيل مشتق من الأدمة وهى السمرة واختلفوا فى الأدمة فرعم

(٢) يقول علماء الجغرافيا المعاصرون إن مكة هى مركز الكرة الأرضية .

(٣) الخليفة (بالقاف) .

الضحك أنها السمرة وزعم النضر أنها البياض قلت (القرطبي) والصحيح أنه مشتق من أديم الأرض . قال ابن سعيد بن جبير : إنما سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض وإنما سمي إنسانا (لأنه نسي) .. (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما) . ذكره ابن سعيد في الطبقات وروى السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود في قصة خلق آدم عليه السلام قال : فبعث الله جبريل عليه السلام إلى الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض : أعوذ بالله منك أن تنقص مني أو تشينني ، فرجع ولم يأخذ وقال : يارب إنها عاذت بك فأعذتها ، فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها ، فرجع فقال كما قال جبريل ، فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره فأخذ من وجه الأرض وخلط ولم يأخذ من مكان واحد وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء فلذلك خرج بنو آدم مختلفين ولذلك سمي آدم لأنه أخذ من أديم الأرض ، فصعد به فقال الله تعالى له : (أما رحمت الأرض حين تضرعت إليك) . فقال : رأيت أمرك أوجب من قولها فقال : (أنت تصلح لقبض أرواح ولده) . قبل التراب حتى عاد طينا لازبا (يلتصق بعضه ببعض) ثم ترك حتى أنتن (من حمأ مسنون) قال : (منتن) ثم قال للملائكة : (إني خالق بشرا^(٤)) من طين^(٥) . فإذا سويته

(٤) صوروا أو شخصوا أو جسدا : وقد ذكر الجسد في القرآن بلفظه ٤ مرات فقط . في سور الأعراف وطه والأنبياء و ص :

(واخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا) (١٤٨/الأعراف)

(فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار) (٨٨/طه)

(وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين) (٨/الأنبياء)

(ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب) (٣٤/ص)

(٥) أحصى العلماء العناصر التي يتألف منها جسم الإنسان وقالوا : إن به من الكربون ما يكفي =

ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) . فعلقه الله بيده لكي لا يتكبر إبليس عليه . يقول : أنتكبر عما عملت بيدي ولم أنتكبر أنا عنه .

فخلقه بشرًا فكان جسدًا من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه ، وكان أشدهم منه فزعًا إبليس ، فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار تكون له صلصلة ، فذلك حين يقول : (من صلصال كالفخار) ويقول : لأمر ما خلقت . ودخل من فيه وخرج من دبره فقال إبليس للملائكة لا تهابوا من هذا فإنه أجوف ولئن سلطت عليه لأهلكته ، ويقال : إنه كان إذا مر عليه مع الملائكة يقول : أرأيتم هذا الذي لم تروا من الخلاق ما يشبهه أن فضل عليكم وأمرتم بطاعته ما أنتم فاعلون ؟ قالوا : نطيع أمر ربنا فأمر إبليس في نفسه لئن فضل على فلا أطيعه ، ولئن فضلت عليه لأهلكته ، فلما بلغ الحين الذي أراد الله أن ينفخ فيه الروح قال الله للملائكة : فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ، فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه عطس فقالت له الملائكة : قل : الحمد لله ، فقال : الحمد لله فقال الله له : رحمك ربك ، فلما دخل الروح رجليه قام عجلان إلى ثمار الجنة (خلق الإنسان من عجل) .. وسجد الملائكة أجمعون إلا إبليس أبى واستكبر .

وروى الترمذي عن أبي موسى الأشعري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض .. جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك .. والسهل والحزن والحديث والطيب » .

= لعمل تسعة آلاف قلم رصاص ، ومن الفوسفور ما يكفي لعمل ألفي رأس عود كبريت . كذلك في الإنسان حديد وجير وبوتاسيوم وملح ومغنسيوم وسكر وكبريت ، وهي كلها من العناصر التي تتكون منها تربة الأرض) .

وروى أبو نعيم الحافظ في كتابه عن مرة عن ابن مسعود : أن الملك الموكل بالرحم يأخذ النطفة فيضعها على كفه ثم يقول : يارب مخلقة أو غير مخلقة ؟ فإن قال مخلقة . قال : يارب ما الرزق ، ما الأثر ، ما الأجل ؟ فيقول : انظر في أم الكتاب فينظر في اللوح المحفوظ فيجد فيه رزقه وأثره وأجله وعمله ، ويأخذ التراب الذي يدفق في بقمته ويعجن به نطقته (منها خلقناكم وفيها نعيدكم) . وخرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (ما من مولود إلا وقد ذر عليه من تراب حفرته .) .. وعلى هذا يكون كل إنسان مخلوقاً من طين وماء مهين .

وذكر ابن سعد في الطبقات عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (الناس ولد آدم وآدم من التراب) . وعن سعيد بن جبير قال : خلق الله آدم عليه السلام من أرض يقال لها دجناء قال الحسن : وخلق جؤجؤه (صدره) من ضرية) (قرية لبني كلاب على طريق البصرة وهي إلى مكة أقرب) . وعن ابن مسعود قال : إن الله تعالى بعث إبليس فأخذ من أديم الأرض من عذباها ومالحها فخلق منه آدم عليه السلام . فكل شيء خلقه من عذباها فهو صائر إلى الجنة، وإن كان ابن كافر، وكل شيء خلقه من مالحها فهو صائر إلى النار، وإن كان ابن تقى ، فمن ثم قال إبليس (أأسجد لمن خلقت طيناً) لأنه أتى بالطينة . وعن عبد الله بن سلام قال : خلق الله آدم في آخر يوم الجمعة . وعن ابن عباس قال : لما خلق الله آدم كان رأسه يمس السماء - قال - فوطده إلى الأرض حتى صار ستين ذراعاً في سبعة أذرع عرضاً . وعن أبي بن كعب قال : كان آدم عليه السلام طوالاً جعداً كأنه نخلة سحوق . وعن ابن عباس - في حديث فيه طول - وحج آدم عليه السلام من الهند إلى مكة أربعين حجة على رجله ، وكان آدم حين أهبط تمسح رأسه السماء ونفرت من طوله دواب البر

فصارت وحشاً من يومئذ ، ولم يمضِ آدم حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفاً ، وتوفي على ذروة الجبل الذي أنزل عليه ، فقال شِيث لجبريل عليها السلام : (صل على آدم) فقال له جبريل عليه السلام : تقدم أنت فصل على أبيك وكبر عليه ثلاثين تكبيرة . فأما خمس فهي الصلاة وخمس وعشرون تفضيلاً لآدم . وقيل كبر عليه أربعاً فجعل بنو شِيث آدم في مغارة وجعلوا عليها حافظاً لا يقربه أحد من بنى قابيل وكان الذين يأتونه ويستغفرون له من بنى شِيث وكان عمر آدم تسعمائة سنة وستاً وثلاثين سنة .. (ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده) فأما الأجل الأول فالإقامة حتى الموت وقد علم الإنسان أنه مقيم بالدنيا حتى يأتي أجل الموت أما الأجل المسمى عنده فهو لم يعلمنا الله إياه وهو أجل القيامة .. (وعنده علم الساعة) .

أما قوله تعالى في سورة الأعراف :

(وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون . وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون) . (١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ الأعراف) .

فهذه آية مشككة تكلم العلماء في تأويلها وأحكامها فقال قوم : إن الله تعالى أخرج من ظهور بنى آدم بعضهم من بعض وأنه تعالى أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد وأنه جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها به وفي الحديث عن النبي ﷺ غير هذين القولين وأنه تعالى أخرج الأشباح فيها الأرواح من ظهور آدم .. روى مالك في موطئه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سئل عن هذه الآية فقال : سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها فقال : إن الله تعالى خلق آدم ثم

مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال : (خلقت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون . ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون) . فقال رجل فقيم العمل ؟ قال فقال رسول الله ﷺ : إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله النار . قال أبو عمر : هذا حديث منقطع الإسناد . لكن معنى هذا الحديث قد صح عن النبي ﷺ من وجوه ثابتة كثيرة من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعبد الله بن مسعود وعلى بن أبي طالب وأبي هريرة رضى الله عنهم أجمعين وغيرهم .

وروى الترمذى وصححه عن أبي هريرة قال : إن رسول الله ﷺ قال : (لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها (من ذريته) إلى يوم القيامة ، وجعل بين عيني كل رجل منهم وبينها من نور ، ثم عرضهم على آدم فقال : يارب من هؤلاء قال : (هؤلاء ذريتك) فرأى رجلا منهم فأعجبه ويص ما بين عينيه فقال : أى رب من هذا ؟ فقال هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود ، فقال : رب كم جعلت عمره قال : ستين سنة قال أى رب زده من عمرى أربعين سنة ، فلما انقضى عمر آدم عليه السلام جاءه ملك الموت فقال : أو لم يبق من عمرى أربعون سنة .. قال : أو لم تعطها ابنك داود قال فجحد آدم فجحدت ذريته ونسى آدم فنسيت ذريته .

وفى غير الترمذى : فحينئذ أمر بالكتاب والشهود . وروى عن عبد الله ابن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال : (أخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من

الرأس) وجعل الله لهم عقولا كنملة سليمان وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم وأن لا إله غيره . فأقروا بذلك والتزموه وأعلمهم بأنه سيبعث إليهم الرسل فشهد بعضهم على بعض . قال أبي بن كعب وأشهد عليهم السموات السبع فليس من أحد يولد إلى يوم القيامة إلا وقد أخذ عليه العهد . وقال يحيى بن سلام : قال ابن عباس في هذه الآية : أهبط الله آدم بالهند ثم مسح على ظهره فأخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، ثم قال (ألسن بركم قالوا بلى شهدنا) قال يحيى قال الحسن : ثم أعادهم في صلب آدم عليه السلام وسمى ذلك اليوم يوم الميثاق .

* * *

بدء الخلق في رأى علماء الفلك وطبقات الأرض :
 رأينا أن علماء الشرع يظهرون من الأحاديث أن العرش هو أول المخلوقات العلوية وأن الماء هو أول المخلوقات المادية وأنه قبل العرش كما رواه أحمد والترمذى ثم خلق الله السموات والأرض أما أول المخلوقات المعنوية فهو القلم وليس هناك دليل يعول عليه في أصل الكائنات من جهة الشرع .
 ويتفق علماء الفلك وطبقات الأرض مع علماء الشرع في أن الكون حدث وتطور بعد أن لم يكن ولكنهم يختلفون عنهم في بداية هذا الحدث وتطوره . ففي حين لا يتحدث الشرع عن ذلك .. نرى (جورج جامبو) في كتاب تاريخ الأرض يقول : إن الكون بدأ تطوره منذ بليون بليون سنة أما الأرض فقد نشأت حديثاً جداً ، إذ لم توجد إلا منذ بليونين من السنين فقط وظهرت الحياة على الأرض منذ بليون سنة ، والحيوانات البرمائية منذ مائتي مليون سنة ، أما الحيوانات الثديية التي يعتبر الإنسان أحد فروعها فقد بدأ ظهورها على الأرض

منذ مائة وعشرين مليون سنة .
والإنسان هو أحدث الوافدين على الأرض إذ بدأ على صورته الإنسانية منذ
٥٠ مليون سنة فقط .
والله أعلم بحقيقة ذلك ^(٦) .

(٦) العقائد الإسلامية . الشيخ سيد سابق .

ذرية آدم وأطوار خلقها

(مالككم لا ترجون لله وقاراً . وقد خلقكم أطواراً)

(١٣ و ١٤ نوح)

عرضنا فيما سبق لبعض ما قيل في قصة خلق آدم عليه السلام ، ورأينا كيف أن الله سبحانه خلقه ولم يكن من قبل شيئاً .. ثم خلق من ضلوعه زوجاً له وبث منها رجالاً كثيراً ونساء ..

لما هي قصة خلق ذرية آدم وما هي الأطوار التي تمر بها قصة الخلق ؟

هذه بعض آيات من كتاب الله تهدينا السبيل :

- (خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم) .

(٣ التغابن)

- (ثم كان علقه فخلق فسوى) . (٣٨ القيامة)

- (خلق الإنسان من علق) . (٢ العلق)

- (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) . (٩ مريم)

- (لم أكن لأسجد لبشر خلقتة من صلصال من حمأ مسنون) .

(٣٣ الحجر)

- (والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً) . (١١ فاطر)

- (هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه) . (٦٧ غافر)
- (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه) . (٢ الإنسان)
- (إنا كل شيء خلقناه بقدر) . (٤٩ القمر)
- (أفأريت ما تمنون . أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) . (٥٨ ، ٥٩ الواقعة)

- (إنا خلقناهم من طين لازب) . (١١ الصافات)
- (يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ^(٧)) .
- (٦ الزمر)

- (فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق) . (٥ ، ٦ الطارق)
- (والله خلق كل دابة من ماء) . (٤٥ النور)
- (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين *
ثم خلقنا النطفة علقه فخلقنا العلقه مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام
لحمًا ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) . (المؤمنون)
وقبل أن نسترسل فى شرح تلك الآيات واستجلاؤها نقول إن من آيات الله
سبحانه أن خلق لنا من أنفسنا أزواجاً .. ثم هو سبحانه يخلقنا فى بطون أمهاتنا
خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث .. على عدة أطوار وصور .
وتعال معى عزيزى الإنسان نقرأ القصة من بدايتها ..

« يقول العالم الأمريكى المشهور - بنكس - وهو أحد كبار علماء
البيولوجيا - علم الحياة - فى العصر الحديث وهو أيضاً مخترع أقراص منع
الحمل : إن السؤال القصير المكون من ثلاث كلمات : كيف يحدث الحمل ؟ هو
سؤال خطير حين يعيد الإنسان النظر فيه فهو سؤال عن كيفية تجديد الحياة . وعن

(٧) المبيض .. وقناة فالوب .. والرحم .

الخلود وكيفية دوام الإنسان على سطح الأرض .. وما أجهلنا نحن جميعاً عن معرفة أسرار الخلود أو طلاسم الحياة .. وصحيح أن العلم الحديث قد أَمَاط اللثام عن كثير من أسرار الحياة لكن إجابته عن هذا السؤال هي الآن إجابة تحتاج إلى مزيد من البحث - وعلى الرغم من أن (بنكس) انكب على دراسة كيفية حدوث الحمل والعوامل المؤثرة فيه سواء قبل حدوثه أو في الأيام الأولى منه ، فإنه لما نشر نتيجة دراساته في مجلد ضخّم اعترف في نهايته اعترافاً صريحاً بأن العلم قاصر جداً عن إعطاء الجواب الشامل لهذا السؤال وإن الإنسان عليه أن يعجب أشد العجب لحدوث هذه الظاهرة المتناهية في التعقيد . ألا وهي الحمل^(٨) .

ما هي الظلمات الثلاث ؟

(خلقكم من نفس واحدة) (٦/الزمر)^(٩)
 (يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث)
 (٦/الزمر)

قوله تعالى : (خلقكم من نفس واحدة) : يعنى آدم عليه السلام . ثم جعل منها زوجها) يعنى ليحصل التناسل .

(٨) من مقال طبي للدكتور/ أحمد التاجي الأستاذ المساعد بطب الأزهر .

نشر في مجلة طبيبك الخاص - ونحن هنا نقصد عرض رأى بنكس بالذات لمفراه .

(٩) قوله تعالى في الآية ٦ من سورة الزمر :

(خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون) .

قوله تعالى : (يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث .) أى يخلقكم فى بطون أمهاتكم نطفة ثم علقه ثم مضغه ثم عظماً ثم لحماً . « قتادة والسدى فى تفسير القرطبي » .

وقال ابن زيد : خلقاً من بعد خلق : خلقاً فى بطون أمهاتكم من بعد خلقكم فى ظهر آدم . وقيل فى ظهر الأب ثم خلقاً فى بطن الأم ثم خلقاً بعد الوضع . ذكره الماوردى .

« فى ظلمات ثلاث » ظلمة البطن - وظلمة الرحم - وظلمة المشيمة - قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك .

وقال ابن جبير : ظلمة المشيمة وظلمة الرحم وظلمة الليل . والقول الأول أصح . وقيل ظلمة صلب الرجل وظلمة بطن المرأة وظلمة الرحم وهذا مذهب أبى عبيدة .

المراحل الثلاث

ضعف - قوة - ضعف وشية

قال تعالى فى الآية ٥٤ من سورة الروم :

(الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشية يخلق ما يشاء وهو العليم القدير) .

حين يولد الإنسان فإنه يكون ضعيفاً أشد ما يكون حاجة إلى الرعاية والعناية « عامان مثلاً للرضاعة - عامان يزحف ولا يقوى على السير - عامان غير قادر على الكلام .. إلخ .. إلخ » .

فى حين نرى طفل أى حيوان تصنع فيه العامان الأعاجيب وضعف الإنسان

ملازم له من البداية فهو في بطن أمه جنين يتغذى عن طريق الحبل السرى ، وقد كفل الله له غذاءه بعد ولادته وقبل نزول اللبن من ثدى أمه .. ففي الأيام الأخيرة من وجود الإنسان جنيناً في بطن أمه تختزن بعض الغدد أو بعض الخلايا أو الجيوب الداخلية في جسمه بطريقة لا نعلمها حتى الآن ، بعض الغذاء عن طريق الحبل السرى ولا تعيش عليه بل تدخره وحين يولد الطفل ويقطع الحبل السرى تنشط هذه الغدد أو الخلايا أو الجيوب فتقوم بتغذية الطفل لحين تتمكن الأم من إرضاعه ، وهى مدة تصل إلى ثمانية وأربعين ساعة .. والجنين الضعيف في بطن أمه يسبح فى سائل يحميه فى حركته من أى صدمة أو احتكاك .. وهذا السائل شمعى يحفظ على جسمه الحرارة بديلاً عن الملابس كذلك فإن الجهاز التنفسى لدى الطفل يكون غاية فى ضعفه فالرئتان كقطعتي إسفنج رخوتان فلا بد من وقاية الطفل من أى تيارات حارة أو باردة قد تودى به - ويحضرنا فى ذلك - أن السيارة إذا كانت جديدة فإنك لا تستطيع السير بها إلا فى حدود سرعة معينة لمسافة معينة بعدها تقوم بتغيير الزيت وتصيح السيارة صالحة للعمل بكامل طاقتها - كذا الإنسان يبدأ ضعيفاً حتى إذا دخل مرحلة الصبا رأته يرتدى قميصاً واحداً شعر عن أكمامه وفتح أزراره دون أن يبالي بالطقس حاراً كان أو بارداً .. وبعدها تأتى مرحلة يلزمك فيها مصاحبتة صديقاً فالرسول ﷺ يعلمنا ذلك فيقول : « لآعب ولدك سبعاً - وأدبه سبعاً - وصاحبه سبعاً .. لكن هذا الشاب المفتول العضلات تراه إذا تجاوز الأربعين أو الخمسين وقد بدأ الشيب يغزو شعره الفاحم السواد وقد بدأ التعب يعرف الطريق إليه وزارته الأمراض والعلل ثم إذا هو يستعين للسير بالعصا وللقراءة بالعدسات وللهمضم بالأدوية .. وهكذا تنصرم الأيام حتى تقوده فى نهاية حياته إلى المقر الأخير .. فسبحان الخالق القوى المتين الذى يرينا الآيات ويضرب لنا الأمثال لعنا

نتفكر ونتدبر ، فالإنسان كالنبات يبدأ ضعيفاً ثم يشب ويشمر ثم يهيج فتراه مصفرًا .. وهذه الحلقات الثلاث بذاتها نراها تتكرر في الكثير من المخلوقات .. ولكنها تبدو أكثر ما تكون وضوحًا لنا في ذلك المخلوق المسمى بالإنسان .

خلق الإنسان

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة العلق :

(اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم .) (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ العلق) .

في هذه الآية يخص الله سبحانه الإنسان بالذكر من دون الخلق (١) وهو لا يخصه بالذكر لأن خلقه أكبر فقد قرر سبحانه أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون) إنما يخصه بالذكر لأن التتريل إليه كما يقول المفسرون ، فالمناسبة تقتضى أن يذكر الإنسان دون سائر الخلق ، فما نزلت الآيات إلا لتدعو الإنسان إلى عبادة ربه ببيان تفردة بالعبادة وحده ، وأول ما يجذب الإنسان إلى عبادة ربه أن يعلم أنه من خلقه خلقه خلقًا وأنشأه إنشاءً ، ولم يك شيئًا قبل أن تمتد إليه يد الله بالخلق والإنشاء .

ولو خص سبحانه من خلقه ما تقوم حياة الإنسان عليه كالارض التى يعيش عليها أو كالشمس التى لا غنى له عنها لما كان لذلك من الأثر فى نفسه أو من

(١٠) من كتاب بحوث فى تفسير القرآن .. سورة العلق ..م. جال الدين عباد (١٣٨٠هـ / ١٩٦١م) .

الدلالة على فضل الله عليه ما لخلق الله له وإنشائه من علق ، فخلق الإنسان وإن كان أقل دلالة على قدرة الله تعالى من خلق السموات والأرض فهو أعظم دلالة على عظيم فضله وموفور نعمه على الإنسان ، وبيان فضل الله على العباد أدفع للعبادة من بيان قدرته الفائقة ، فالعبادة شكر للنعمة واعتراف بالفضل وتقدير للجميل ، ومن ثم كان ذكر الإنسان وبيان خلق الله له أنسب للوقت وأصلح للمناسبة ، مناسبة الدعوة إلى عبادة الرب تعالى ببيان جدارته بالعبادة وحده .

الخلق من علق من أى شيء خلقه ؟

النطفة أول أطوار الجنين :

بينما يقرر سبحانه وتعالى في سورة العلق أنه خلق الإنسان من علق يقرر في آيات أخرى من القرآن أنه خلق الإنسان من نطفة ، إذ يقول تعالى : (من أى شيء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره) ويقول : (ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة) وواضح من هذه الآيات أن النطفة أول أطوار الجنين وأن العلقة تالية لها وهى حقيقة أشرنا إليها في هذا المقام ، لأنه قد يتبادر إلى الأذهان من قوله تعالى : (خلق الإنسان من علق) أن العلقة أول أطوار الجنين ، من ذلك قول ابن كثير في هذه الآية التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علق ، وهذا ما نحب أن ننفيه فالنطفة سابقة للعلق كما قرر سبحانه في غير آية من كتابه .

وقد يتساءل القارئ الآن لماذا قرر سبحانه أنه خلق الإنسان من علق مع أن النطفة أول أطوار الجنين . لماذا رد سبحانه الإنسان إلى العلق دون النطفة ؟

وجواب هذا السؤال يتضح إذا علمنا الغاية التي يهدف إليها سبحانه من هذه الآية فالقصد كما سنبين بعد - هو بيان قدرة الله الفائقة وعظيم فضله . وهي غاية تتحقق إذا رد سبحانه الإنسان إلى العلق كما تتحقق إذا رده إلى النطفة ، فالفرق بينهما ليس بشيء بالنسبة للإنسان الذي ينتهي إليه أمرهما بقدرة الله وإرادته ، بحيث يكون خلق الإنسان دليلاً على قدرة الله الفائقة سواء في ذلك أن يقول خلق الإنسان من علق أو يقول خلق الإنسان من نطفة ، فالذي يخلق الإنسان من علق لن يعجز عن خلقه من نطفة .

ومثل ذلك كمثال المسافة بين سطح الأرض وقمة الجبل فهي ليست بشيء إلى جانب المسافة بين الأرض والقمر مثلاً ، بحيث يكون إطلاق الصاروخ إلى القمر دليلاً على التقدم العظيم الذي أحرزه الإنسان في ميدان العلم ، سواء في ذلك إطلاقه من قمة الجبل أو من سطح الأرض مباشرة ، فالذي يطلق الصاروخ إلى القمر من قمة الجبل لن يعجز عن إطلاقه من سطح الأرض .

سيان إذن أن يرد سبحانه الإنسان إلى العلق أو يرده إلى النطفة مادام القصد بيان قدرته الفائقة وعظيم فضله فهي غاية تتحقق برد الإنسان إلى أي منها ، كما يتحقق الأصل العربي أو القرشي للرسول برده - عليه السلام - إلى جده عبد المطلب أو إلى جده عبد مناف فكلا الجدتين عربى قرشى .

فالسبب الذي يهدف إليها سبحانه من هذه الآية تتحقق بذكر العلق كما تتحقق بذكر النطفة بحيث يكون المعنى صحيحاً بذكر أي منها ، لكن اختيار العلق دون النطفة لا بد أن يقوم على أساس فني أو لفظي .

وقد اختار سبحانه العلق ليكتمل التناسق الفني والموسيقى اللفظية في مطلع السورة : « خلق » و « علق » فاصلتان متحدتان في الوزن والقافية وفي حرفين من ثلاثة حروف فلا يختلفان إلا في حرف واحد وبهذا التقارب عبر سبحانه عن

المعنى المراد بلفظ جميل يطرب الأذن برنينه الموسيقى .
والقصد كما قال الإمام أبو عبد الله الخطيب - هو التوفيق بين الألفاظ في
أصواتها وموسيقاها مع صحة المعاني وإلى هذا الرأي يذهب أبو السعود في
تفسيره .

الإنسان بين أصله المباشر وأصله البعيد :

التراب أصل الإنسان البعيد :

ومن الملاحظات الجديرة بالتعليق في هذا المقام ما قرره سبحانه من أنه خلق
الإنسان من طين أو من تراب باعتبار التراب أصل الطين أو من صلصال باعتبار
الصلصال صورة من الطين .

إذ يقول تعالى في سورة السجدة : (الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق
الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين)
(٧ ، ٨ السجدة) .

ويقول في سورة فاطر : (والله خلقكم من تراب ثم من نطفة) ويقول في
سورة الرحمن : (خلق الإنسان من صلصال كالفخار) .

وواضح أن هذه الآيات وأمثالها من كتاب الله تتحدث عن خلق الإنسان
الأول الذي لم يضمه رحم أو تحمله أنثى ، يؤكد ذلك قوله تعالى في سورة
ص : (إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت
فيه من روحي فقعوا له ساجدين) .

فالبشر المقصود في هذه الآية هو آدم عليه السلام إذ أمرت الملائكة أن
تسجد له ولم تؤمر أن تسجد لغيره من الناس .

والآيات التي تقرر خلق الناس من تراب إنما تقرر ذلك باعتبار أن جدّهم
الأول آدم عليه السلام مخلوق من تراب ، أما الأصل المباشر لبني آدم فليس هو

التراب وإنما هو الماء المهيّن أو النطقة ، الأمشاج أو البويضة الملقحة بلغة العلم في العصر الحديث .

والأحاديث التي استشهدنا بها على خلق الإنسان من طين تشير إلى أن المقصود بالإنسان هو الإنسان الأول وأن سلالة أو نسله هم الذين خلقوا من الماء المهيّن ، فذلك أصلهم المباشر والتراب أو الطين أصلهم البعيد .

ورد الإنسان بالمفرد والعلق بالجمع :

وما يلفت النظر في الآية أيضاً ورود الإنسان بالمفرد والعلق بالجمع فالعلق جمع علقه ، وإنما قال من علق على الجمع لأن الإنسان في معنى الجمع كما يقول المفسرون ، فالإنسان في قوله تعالى : (خلق الإنسان من علق) هو الإنسان في قوله تعالى : (علم الإنسان ما لم يعلم) وفي قوله (إن الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) لم يقصد به تعالى إنساناً بعينه وإنما قصد الإنس جميعاً فكلهم خلق من علق .

معنى العلق :

العلق كما قدمنا جمع علقه ، وقد ذهب المفسرون على اختلافهم قديمهم وحديثهم إلى أن العلق هو الدم الجامد ونقلت عنهم الترجمات الإنكليزية للقرآن هذا التفسير فجعلت الكلمة الإنكليزية clot ترجمة للعلق في هذه الآية والاسم المشتق منها وهي كلمة تعني الدم الجامد الذي فسر به المفسرون عندنا بالعلقة .

تفسير العلقه بالدم الجامد يتعارض مع علم الأجنة .

وتفسير العلقه بالدم الجامد تسمح به اللغة ولا يسمح به الطب أو علم الأجنة خاصة ، فإذا استشرت قاموساً من قواميس اللغة على اختلافها وجدت الدم

الغليظ أو الجامد من معاني العلقة ولكن الحقائق الثابتة في علم الأجنة لا يمكن أن تفسر العلقة بالدم الجامد أبدًا . فالعلقه كما قرر القرآن في آيات أخرى هي طور من أطوار الجنين يعقب النطفة أو البويضة الملقحة ويسبق المضغة فهي ثاني أطوار الجنين . والثابت أن الطور الذي يعقب تلقيح البويضة يتصف أول ما يتصف بظاهرة الانقسام cleavage

العلقه في ضوء علم الأجنة :

ولئن كنا نفتقد المعلومات عن انقسام البويضة الإنسانية فإن انقسام البويضة في الثدييات عامة وفي فصيلة من فصائل القروء قريبة الشبه بالإنسان خاصة قد كشف لنا الكثير عما يرجح حدوثه في الإنسان .

انقسام البويضة الملقحة :

فمن دراسة لويس وهارتمان (١٩٣٣) لفصيلة *Macacus rehesus* - وهي فصيلة من القروء كبيرة الشبه بالإنسان - يتبين لنا - كما هو واضح من شكل (١) . أن البويضة الملقحة تنقسم إلى خليتين خلال أربع وعشرين ساعة من وقت انطلاق البويضة من المبيض ovulation ثم إلى ثلاث فأربع ثم خمس فست فسبع فثمان ، ويستمر الانقسام كذلك حتى تصبح البويضة الملقحة حول الساعة السادسة والتسعين مركبة من ستة عشر خلية ويطلق عليها في هذه المرحلة من مراحل النمو اسم التوتة morula لما بينها ككتلة من الخلايا المترصة بعضها فوق بعض وبين ثمرة التوت من شبه .

وصول الجنين إلى فراغ الرحم :

وعند هذه المرحلة يكون الجنين قد وصل إلى فراغ الرحم في شكل مجموعة من الخلايا المركزية inner cell mass محاطة تماماً بدائرة من الخلايا سيطلق عليها فيما بعد اسم التروفوبلاست Trophoblast ويحيط بهذه الدائرة غشاء يطلق عليه زونا بلوسيدا zona pellucida وهو الغشاء الذى كان يحيط بالبويضة أصلاً . وبعد وصول التوتة morula إلى الرحم تمر بتغيرات تنقلها إلى طور جديد . إذ أن سائلاً من فراغ الرحم ينفذ إلى الجنين من خلال الغشاء المعروف بالزونا بلوسيدا والخلايا الخارجية التى سيطلق عليها اسم التروفوبلاست ، ويملاً السائل النافذ من الرحم الفراغات الموجودة بين خلايا الجنين المركزية والخلايا الخارجية ، ويزداد كمية السائل النافذة من الرحم إلى الجنين تتكون فى الجنين فجوة cavity تسمى البلاستوسيل blastocoele وتراح مجموعة الخلايا المركزية إلى جانب من الجوانب فتلتصق بالجدار الداخلى للخلايا الخارجية التى تنضم إذ ذاك وتسمى التروفوبلاست ، وفى هذه المرحلة يسمى الجنين بلاستوسيت blastocyst.

وفى هذا الوقت على وجه التقريب يختفى الغشاء الذى كان يحيط بالبويضة أصلاً والذى عرفناه باسم زونا بلوسيدا . يسمح للخلايا التروفوبلاست بالالتصاق بجدار الرحم بعد أن كان الجنين يتحرك بحرية فى قراره المكين ، ويحدث التصاق الجنين هذا أو غوصه فى جدار الرحم فى منتصف اليوم الثامن من عمر الجنين على وجه التقريب ، فأصغر ما اكتشف من أجنة البشر وجد فى اليوم الثامن من عمره فى أول عهده بمرحلة الغوص فى جدار الرحم . وتنقسم مجموعة الخلايا المركزية إلى طبقتين طبقة سميكة علوية (اكتودرم)

وطبقة رقيقة سفلية (اندودرم) وتتكون فجوة وحويلة (فجوة الأمينون)
والحويلة الصفراوية ، وتتكون فيها بعد طبقة ثالثة من الخلايا هي طبقة
الميزودرم ، ومن هذه الطبقات الثلاث التي تميزت (الاكتودرم والأبندودرم
والميزودرم) سوف تتكون فيها بعد أعضاء الإنسان المختلفة ، فتنشأ من كل طبقة
مجموعة معينة لأعضاء الجنين ، ويتم تغذية الجنين في أول الأمر بطريقة الانتشار
الغشائي :

ثم لا يلبث أن يتكون في اليوم العشرين من حياة الجنين جهاز دورى
بسيط .

أطوار الجنين :

ويعتبر بعض علماء الأجنة الفترة السابقة لتكوين الجهاز الدورى البسيط
الذى أشرنا إليه آنفاً والتي تبلغ غايتها بغوص الجنين في جدار الرحم ، وتستنفذ
الأسابيع الثلاثة الأولى من حياة الجنين على وجه التقريب يعتبرونها المرحلة الأولى
من مراحل نمو الجنين .

والمرحلة التالية لها تبدأ ببداية الأسبوع الرابع تقريباً وتنتهى بنهاية الأسبوع
الثامن وتتميز هذه المرحلة بالنمو السريع والتميز الذى تتكون به جميع الأجهزة
والأعضاء الأساسية للجسم وتوضح به الملامح الرئيسية .

والمرحلة الأخيرة تمتد من نهاية الأسبوع الثامن إلى المولد وتتميز هذه الفترة
بسرعة النمو المذهلة أكثر مما تتميز بتخلق الأعضاء والأجهزة المختلفة .

على أن هذه التقسيمات لا تعنى بحال أن كل مرحلة قائمة بذاتها منفصلة عن
الأخرى ، إذ أن هذه المراحل يتصل بعضها ببعض ويؤدى بعضها إلى بعض .

* * *

ومن هذا العرض الموجز لأطوار الجنين يتبين لنا أن ما سماه القرآن بالمضغة لابد أن يقابل المرحلة الثانية من المراحل الثلاثة التي ذكرناها آنفاً ، وهي المرحلة التي يتخلق فيها الجنين أو تتكون أجهزته وأعضاؤه ، ذلك أن المضغة قد وصفها القرآن بأنها مخلقة وغير مخلقة ، فهي الطور الذي يتخلق فيه الجنين فتكون أعضاؤه وأجهزته المختلفة ، أولاً يتخلق كالسقط الذي قد يحدث من شذوذ في نمو الجنين كأن يغوص في غير المكان الطبيعي من جدار الرحم فلا يتخلق ويموت وتترف الأم نزيهاً شديداً ، وهذه الحالات الأخيرة حالات شاذة يبلغ فيها الجنين مرحلة التخلق ولا يتخلق أولاً يكتمل تخلقه فيولد ناقصاً غريب الخلق .

النطفة والعلة تقابلان الطور الأول :

وحيث إن النطفة والعلة سابقتان للمضغة كما قرر القرآن ، فلا بد أن تكونا مقابلتين للمرحلة الأولى من المراحل الثلاثة التي ذكرناها آنفاً والتي تبلغ غايتها بغوص الجنين في جدار الرحم ، وتستنفذ الأسابيع الثلاثة الأولى من حياة الجنين على وجه التقريب .

تركيب العلة :

وواضح أن الجنين في هذا الطور الذي سماه القرآن علة ليس من الدم الجامد في شيء كما ذهب المفسرون وإنما هو مجموعة من الخلايا تميزت إلى صفين علوى وسفلى (اکتودرم وأندودرم) بالإضافة إلى فجوة الأمنيون والحويصلة الصفراوية وتركيب الخلايا التي تكون العلة مختلفة تمام الاختلاف عن تركيب الدم الجامد ، فهي خلايا نشأت بطريقة الانقسام عن البويضة الملقحة التي تمثل

الخلية الإنسانية الأولى ، والبويضة الملقحة وما نشأ عنها من خلايا تتركب من نواة وستويلازم بصفة أساسية .

تركيب الدم السائل :

أما الدم السائل فيتكون من سائل أصفر اللون باهت يعرف بالبلازما تسعة أعشاره ماء وعشره مواد غذائية مهضومة ، بالإضافة إلى كميات قليلة من مخلفات عضوية .

وهذا السائل المعروف بالبلازما يحوى عددًا كبيرًا من خلايا دقيقة تعرف بالكرات الدموية الحمراء ، وهى خلايا تلاثت أنويتها واحتوى سيتوبلازمها على مركب أزرقى يحتوى على الحديد يعرف بالهيموجلوبين ، ويعزى إليه لون الدم الأحمر ، وتنتشر هذه الخلايا بكثرة فى دم الإنسان بدرجة أن المليمتر المكعب الواحد من الدم يحوى خمسة ملايين من هذه الكرات .

وبالإضافة إلى هذه الكرات الحمر تحوى البلازما عددًا آخر من الكرات البيض وهى خلايا مجهرية ذات نواة وشكل بعضها متغير باستمرار ، إذ تخرج منها زوائد تتحرك بواسطتها جميعًا كما تفعل الأميبا ، وهى توجد فى الدم بنسبة أقل من الكرات الحمر ، إذ يقابل كل خمس مئآت من الكرات الحمراء واحدة بيضاء تقريبًا .

والدم الجامد يتكون من خيوط دقيقة جدًا تسمى خيوط الفبرين ، كانت فى الأصل مادة بروتينية ذائبة فى الدم ثم تحولت نتيجة لعمليات كيميائية إلى هذه الخيوط التى تحصر بينها فى شكل شبكة - الكرات الدموية السابقة الذكر وعدداً كبيراً من الصفائح الدموية المتهلمة .

وبواضح من الوصف الذى قدمناه للدم السائل والدم الجامد أن الجنين فى

المرحلة التي سماها القرآن بالعلقة ليس من الدم الجامد أو السائل في شيء بل إن الجنين حتى الأيام الأخيرة من طور العلقه لم يكن يحوى خلايا دموية على الإطلاق فالراجح أن الخلايا الدموية لا تتكون ثلاثها إلا حول اليوم الثامن عشر من حياة الجنين .

ومن أجل هذا نرفض ما ذهب إليه المفسرون من أن العلقه ، دم جامد ونرفض ترجمة العلقه بالكلمة الانجليزية clot التي تقابل الدم الجامد في العربية وحجتنا في هذا الرفض تعارض هذا التفسير مع المفهوم الطبي لما يقابل العلقه من مراحل نمو الجنين .

العلقه في رأينا :

والعلقه - في رأينا - هى ما يعلق بالشئ ويتشبث به وهو تفسير تسمح به اللغة ويسمح به علم الأجنة في وقت واحد .
فاللغة لم تجعل العلقه وقفاً على الدم الجامد بل جعلت من معانيها العلوق والتشبث الذى أشرنا إليه آنفاً ، يقال علق الصيد في الحباله ، وعلق الصائد إذا علق الصيد في حبالته ، وعلق دم فلان بزيد إذا كان زيد قاتله ، وأعلق ظفره بالشئ إذا أنشبه ، وعلق الشوك بالثوب وتعلق به إذا نشب به واستمسك ، ومن معانى إعلق شئ أسود يشبه الدود يكون بالماء ، فإذا أشرته الدابة يعلق بحلقها ، والواحدة علقه ، ومنه قولهم كل بيع أبقي علقه أى شيئاً يتعلق به البائع - فهو باطل .

وكذلك تسمح الحقائق الثابتة في علم الأجنة بتفسير العلق بما يتشبث ويستمسك بشئ آخر ، فكما قدمنا في العرض الموجز لأطوار الجنين تمكث البويضة الملقحة حرة في فراغ الرحم حتى منتصف اليوم الثامن على وجه

التقريب ، وإذ ذلك تعلق بجدار الرحم ثم تغوص فيه ، وتسمى كتب الأجنة هذا العلوق والغوص باسم خاص وتجعله طوراً من أطوار النمو ، ومن ثم فالعلقة عندنا هي هذا الطور الذى يعلق فيه الجنين بجدار الرحم ثم يغوص فيه ، ويبدأ هذا العلوق - كما قدمنا - فى منتصف اليوم الثامن ثم يبدأ الغوص فى جدار الرحم ويستمر حتى يبلغ الغاية قبيل اليوم العشرين ، وبهذا ينتهى طور العلقه ويبدأ طور المضغة ، الذى يستمر حتى اليوم الستين من عمر الجنين .

العلقة فى الحديث :

والباحث فى معنى العلقه عندما يصل إلى هذه المرحلة من البحث يستوفقه حديث وارد فى الصحيح فيه ما يخالف ما انتهينا إليه ، فلقد روى مسلم فى صحيحه عن رسول الله ﷺ أنه قال : إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون فى ذلك علقه مثل ذلك ، ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ... إلخ .

ومدلول هذا الحديث أن مرحلة العلقه تبدأ من اليوم الأربعين من حياة الجنين وتستمر حتى اليوم الثمانين ، وأن مرحلة المضغة تبدأ من اليوم الثمانين وتستمر حتى اليوم العشرين بعد المائة ، وهذا يخالف ما انتهى إليه البحث فيما قدمناه إذ قلنا إن مرحلة العلقه تبدأ فى اليوم الثامن وتنتهى قبيل اليوم العشرين وأن مرحلة المضغة تبدأ فى اليوم العشرين وتنتهى فى اليوم الستين .

غير أن القارئ لباب القدر الذى تضمن هذا الحديث سوف يجد المخرج من هذا الإشكال ، فثمة أحاديث أخرى عرضت لهذا الموضوع تخالف الحديث الذى قدمناه فى المتن والسند ، من هذه الأحاديث ما روى من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إذا مر بالأنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها

ملكا فصورها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال يارب
أذكر أم أنسى ؟ فبقضى ربك ما يشاء ويكتب الملك». ومؤدى هذه الرواية أن
مرحلة المضغة التى يكون فيها التخلق تبدأ من الليلة الثانية والأربعين لا من
اليوم الثمانين كما تقول الرواية الأولى التى أبارت الإشكال.

وقد تنبه النووى فى شرحه لصحيح مسلم إلى هذا الاختلاف أو التناقض بين
الروايات ، وحاول أن يبرره بما قاله القاضى وغيره من أن القول فى الرواية
الآخيرة ليس على ظاهره ولا يصح أن يحمل على ظاهره ، وأن المراد من
تصويرها وخلق سمعها إلى آخره - فيما يرون - أن الملك يكتب ذلك ثم يفعله فى
وقت آخر . وقد استندوا فى رأيهم هذا إلى أن التصوير عقب الأربعين الأولى غير
موجود فى العادة وإنما يقع فى الأربعين الثالثة وهى مدة المضغة .

وهو فهم قدمنا خطأه بما هو ثابت فى علم الأجنة من أن الطور الذى يتميز
بالتخلق من أطوار الجنين إنما يقع بين اليوم العشرين والستين ، فالتخلق إذن لا
يبدأ فى اليوم الثمانين أو فى الأربعين الثالثة كما قالوا ، وإنما يبدأ منذ اليوم
العشرين ولا يكاد يبلغ الجنين اليوم الستين من حياته على وجه التقريب حتى
تكون أجهزته الرئيسية قد تكونت طلائعها واكتسب الملامح الرئيسية التى تميزه
كإنسان بعد أن كان لا يختلف عن أجنة الحيوانات الأخرى فى كثير .

ونحن لا نذكر هذا لنلوم شراح الحديث على فهمهم هذا ، فلم يكن علم
الأجنة قد تقدم أيامهم بالدرجة التى تكشف عن هذه الحقائق ، وإنما ذكرناه
لنبين أن القول فى الرواية الثانية للحديث لا يجوز أن يحمل على غير ظاهره لما فى
ذلك من تعارض مع الحقائق الثابتة فى علم الأجنة وإن حمله على الظاهر يجعله
أقرب إلى هذه الحقائق إذ يفيد أن التخلق يكون فى الليلة الثانية والأربعين ،

أى فى الليلة الوسط مرحلة المضغة على وجه التقريب إذ جعل العلم بدايتها فى اليوم العشرين ونهايتها فى اليوم الستين كما قدمنا القول .
والحديثان - اللذان وجدنا بينهما ما قدمنا من تعارض - من أحاديث الآحاد التى تفيد الظن ولا تفيد القطع واليقين .
والموقف الذى يتخذه علماء الحديث أو علم مصطلح الحديث فى هذا الصدد يتركز فى خطوات ثلاث :

أولاً : محاولة التوفيق بين الحديثين المتعارضين ، فإذا أمكن الجمع بينهما فإننا نصير إليه .

ثانياً : وإذا لم يمكن الجمع حاولنا الترجيح فإذا استطعنا ترجيح حديث على آخر لسبب معقول أخذنا بالراجح وتركنا المرجوح .

ثالثاً : وإذا تعذر الترجيح أمسكنا عن القول وتوقفنا عن الأخذ بالحديثين معاً واعتبرناهما كأن لم يكونا مفوضين الأمر إلى الله عز وجل .

وفى ما يتعلق بالتوفيق بين الحديثين لا نجد ما يعيننا عليه ، فالتعارض بينهما واضح وحمل الحديث الثانى على غير ظاهره لا يجوز كما قدمنا القول .

وفى ما يتعلق بالترجيح نجد من اليسير علينا أن نرجح الحديث الثانى لما قدمناه من أنه أقرب إلى الحقائق الثابتة فى علم الأجنة فؤدى هذا الحديث أن الله يبعث الملك ليصور الجنين فى الليلة الثانية والأربعين ، وهى الليلة الوسط من مرحلة المضغة التى يجعل العلم بدايتها فى اليوم العشرين ونهايتها فى اليوم الستين ، والحديث لا يفيد أن بداية التخلق فى الليلة الثانية والأربعين إنما يفيد أن الملك يصور السمع والبصر.. إلخ فى هذه الليلة ، وقد يعنى هذا أن الشكل الخارجى للعين والأذن يتضح فى هذا الوقت وأن بداية التخلق تكون قبل ذلك ولعلها فى اليوم العشرين كما رجح العلم .

وقد قدمت لنا كتب الأجنة صوراً للمضغة في مراحل التخلق المختلفة وجعلت أمام كل صورة عمر الجنين على وجه التقريب .. والصورة التي تصور الجنين في اليوم الثالث والأربعين من عمره أى في الوقت الذي حدده الحديث الراجح عندنا تقريباً يتضح فيها الشكل الخارجى للعين والأذن واليد والقدم ، بعد أن كانت غير ظاهرة تماماً فيما سبق من أطوار ، وفيها يفترب الجنين من الشكل الإنسانى ، ولعل الحديث يشير إلى هذه المرحلة من النمو الجنينى دون أن ينكر مراحل التخلق السابقة التى انتهت بالجنين إلى هذا الطور . أو لعله يشير إلى مرحلة أخرى لاحقة لهذه المرحلة من مراحل التخلق ، فالصورة التى سجلتها كتب الأجنة وقدرت عمر الجنين فيها بسبعة وأربعين يوماً على وجه التقريب يزداد فيها اقتراب الجنين من الشكل الإنسانى وتتضح ملامحه الرئيسية بشكل ملحوظ ، وتقديرهم لعمر الجنين فيها بسبعة وأربعين يوماً إنما هو تقدير على وجه التقريب لا التحديد ، وقد يكون عمره فى الحقيقة اثنين وأربعين يوماً أو ما يقرب من ذلك كما أشار الحديث .

ومن هذا الذى قدمناه يتبين لنا أن الحديث الثانى هو الراجح عندنا لأنه يتفق مع ما انتهى إليه علم الأجنة فى هذا الشأن .
وإذا لم يرتض القارئ ترجيحنا هذا فهو فى حل من أن يتوقف عن الأخذ بالحديثين معاً ويعتبرهما كأن لم يكونا ويقف بالبحث عند النتيجة التى انتبنا إليها .

الحكمة فى ذكر الخلق من علق :

والخلق من علق كما أشرنا فى عنوان هذا الفصل - دليل قدرة الله الفاتحة وعظيم فضله . وقدرة الله سبحانه تتضح من هذه النقطة المذهلة التى جعلت من

العلق إنساناً وعلى قدر إدراكنا لهذه النقلة يكون إدراكنا للقدرة الإلهية :
١ - فالعلقة - عندما تعلق بجدار الرحم وتتهيأ للغوص فيه لم يكن يزيد طولها عن جزء من المليمتر فإذا جاءت ساعة المولد بلغ طول الوليد خمس مئآت من المليمترات ، ومعنى هذا أن العلقة قد أصبح طولها مثل ما كانت عليه مئآت المرات .

٢ - والعلق التي يبلغ طولها نصف « مليمتر » لا يمكن أن تقول إنها تزن شيئاً فإذا جاءت ساعة المولد أصبحت طفلاً يزن ٣٢٥٠ جراماً أو سبعة أرطال على وجه التقريب ، وهى نقلة رائعة لا يمكن أن تصورها الأرقام .

٣ - والعلق ، بعد هذا غير مخلقة على الإطلاق فهى خالية تماماً من الأعضاء والأجهزة المميزة للجسم الإنسانى ، فإذا جاءت ساعة المولد أصبحت طفلاً تام التخلق له ما نعرف من أعضاء الجسم الإنسانى وأجهزته المختلفة ، ولا يلبث الطفل أن ينضج عقله ويعلمه الله ما لم يكن يعلم ، فيبعث الطيارة إلى أعلى السحاب ويرسل الغواصة إلى أعماق المحيط ويطلق الصاروخ إلى سطح القمر وهو الذى كان فى أرحام الأمهات علقه لا يبلغ طولها المليمتر الواحد ولا تزن شيئاً أو تعقل أمراً .

وبرغم ما وصل إليه العلم فى عصرنا الحاضر من تقدم مذهل لا يزال تخلق الأجنة أمراً مدهلاً محيراً للعلماء لا يستطيعون تفسيره أو تحليله ، ولا يزال السؤال قائماً : كيف تميزت الخلية الإنسانية الأولى إلى خلايا الأعصاب والعظام والعضلات وغيرها ؟ .

ولقد حاول بعض العلماء حل المشكلة ولكن محاولتهم - فيما نرى تركت المشكلة دون حل ، من ذلك قول وودورث Woodworth وماركيس : Marquis

(أن الأصل الوراثى لخلايا الجسم المتعددة واحد ، فكلها نشأت بطريقة الانقسام عن البويضة الملقحة ، ومن ثم فإن التميز إلى خلايا الأعصاب والعظام والعضلات لابد أن يكون من أثر البيئة وحدها) .

(والبيئة التى توجد فيها الخلية من خلايا الجنين غير البيئة التى يوجد فيها الجنين ككل ، فبيئة الجنين هى الرحم بما فيه من غذاء ودفع ، وبيئة الخلية الواحدة من خلايا الجنين هى مجموعة الخلايا المحيطة بها) .

(وعندما يأخذ بعض التميز فى الظهور تحاط الخلية فى جزء ما من الجسم بمجموعة من الخلايا تختلف عن مجموعة الخلايا التى تحيط بخلية أخرى فى جزء آخر من الجسم) .

(وهكذا تختلف بيئة الخلية فى هذا الجزء عن بيئة الخلية فى ذاك الجزء من الجسم ، وينشأ عن اختلاف البيئتين تميز هذه الخلية إلى خلية أعصاب مثلا وتميز تلك إلى خلية عظام أو عضلات .. إلخ) .

وواضح - كما قدمنا - أن هذه المحاولة تركت المشكلة - التى أريد حلها - قائمة تنتظر الحل ، فلقد دار صاحبها فى حلقة مفرغة : قال : إن تميز الخلايا يرجع إلى اختلاف بيئاتها واختلاف بيئاتها يرجع إلى تميزها .

وهذا ظاهر مما بين الأقواس مما نقلناه عنها ، فلقد قالوا وعندما يأخذ بعض التميز فى الظهور .. دون أن يبينوا كيف يبدأ هذا التميز فى الظهور ، أو يذكروا أن هذا التميز هو المشكلة التى حاولوا حلها ، وهكذا دارا - كما قلنا - فى حلقة مفرغة تبدأ بالمشكلة دون حل ، وتنتهى بها دون حل أيضا .

ولئن دل خلق الإنسان من علق على قدرة الله الفارقة فإنه يدل كذلك على فضله العظيم ، فالخلق من أكبر النعم لا ريب . لم يكن الإنسان قبل شيئا فأصبح

به شيئاً ، وأى شيء ، وقد قدمنا القول في أن ذكر الخلق في الدفعة الأولى من القرآن متصل تماماً بالمناسبة التي نزلت من أجلها الآيات .

(إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج) . (٢ / الإنسان)

الإنسان : أى ابن آدم من غير خلاف . من نطفة : أى من ماء يقطر وهو المنى ، وكل ماء قليل في وعاء فهو نطفة يقول عبد الله بن رواحة يعاتب نفسه :
ما لي أراك تكرهين الجنة هل أنت إلا نطفة في شنة
[الشنة : القرية]

وجمعها نطف ونطاف . أمشاج : أخلاط . ويقال مشجت هذا بهذا أى خلطته فهو ممشوج ومشيج مثل مخلوط وخليط ^(١١) وقال المبرد : اختلاط النطفة بالدم . وقال الفراء : أمشاج : أخلاط ماء الرجل وماء المرأة والدم والعلة ، ويقال للشيء من هذا إذا خلط مشيج كقولك خليط وممشوج كقولك مخلوط . وروى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : الأمشاج : الحمرة في البياض والبياض في الحمرة . وهذا قول يختاره الكثير من أهل اللغة .

وعن ابن عباس ^(١٢) أيضاً قال : يختلط ماء الرجل وهو أبيض غليظ بماء المرأة وهو أصفر رقيق فيخلق منها الولد ، فما كان من عصب وعظم وقوة فهو من ماء الرجل ، وما كان من لحم ودم وشعر فهو من ماء المرأة . وقد روى هذا

(١١) القرطبي ص ٦٩١١ تفسير سورة الإنسان . ط دار الشعب - القاهرة .

(١٢) في حاشية الجمل نقلاً عن القرطبي والمعنى : « من نطفة قد اختلط فيها الماءان وكل منهما مختلف الأجزاء متباين الأوصاف في الرقة والتخن والقوام والخواص تجتمع من الأخلاط وهى العناصر الأربعة ، ماء الرجل غليظ أبيض وماء المرأة رقيق أصفر فأيهما علا كان الشبه له .

مرفوعاً ذكره البزار . وروى عن ابن مسعود : أمشاجها : عروق المضغة .
وعنه : ماء الرجل وماء المرأة وهما لوانان . وقال مجاهد : نقطة الرجل بيضاء
وحمرها ونقطة المرأة خضراء وصفراء . وقال ابن عباس : خلق من ألوان . خلق
من تراب ، ثم من ماء الفرج والرحم ، وهى نقطة ثم علقه ثم مضغة ثم عظم ثم
لحم ونحوه . قال قتادة : هنى أطوار الخلق ، طور علقه ، وطور نقطة ، وطور
عظاماً ، ثم يكسو العظام لحماً ، كما قال فى سورة المؤمنين : (ولقد خلقنا
الإنسان من سلالة من طين .) الآية .

وقال ابن السكيت : الأمشاج : الأخلط ، لأنها ممتزجة من أنواع ،
فخلق الإنسان منها ذا طبائع مختلفة ، وقال أهل المعانى : الأمشاج ما جمع وهو
فى معنى الواحد ، لأنه نعت للنطفة ، وروى عن أبى أيوب الأنصارى : قال :
جاء خبر من اليهود إلى النبي ﷺ فقال : أخبرنى عن ماء الرجل وماء المرأة
فقال : « ماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة أصفر رقيق ، فإذا علا ماء المرأة
آثنت ، وإذا علا ماء الرجل أذكرت . » فقال الخبر : أشهد أن لا إله إلا الله
وأنتك رسول الله .

ويقول أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبي : فى الجامع لأحكام
القرآن .. يقول الفراء والأخفش (الماء الدافق) الذى خلق منه الإنسان هو الماء
(المنى) المصبوب فى الرحم ، أما الزجاج فيقول من ماء ذى اندفاق وهو ماء ان
ماء الرجل وماء المرأة لكن جعلها ماء واحداً لامتزاجها (نقطة أمشاج) وعن
عكرمة عن ابن عباس : (دافق) لزج .. (من بين الصلب) : الظهر - ظهر
الرجل - (والترائب) : الصدر - موضع القلادة من صدر المرأة .. بين
ثديها . وعن ابن جبير عن ابن عباس : الترائب أربعة أضلاع من يمنة الصدر
وأربعة أضلاع من يسرة الصدر .. وقال معمر بن أبى حبيبة المدنى : الترائب

عصارة القلب ومنها يكون الولد ، والمشهور من كلام العرب أنها عظام الصدر والنحر .. والتربية واحدة التراثب .

وفى التفسير: (١٣) يخلق من ماء الرجل الذى يخرج من صلبه العظم والعصب، ومن ماء المرأة الذى يخرج من ترائبها اللحم والدم، وقاله الأعمش. وفى سورة الحجرات : (إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) وقيل : إن ماء الرجل يتزل من الدماغ ثم يجمع فى الأنثيين . وهذا لا يعارض قوله : (من بين الصلب) لأنه إن تزل من الدماغ فإنما يمر بين الصلب والترائب . وقال الحسن : المعنى يخرج من صلب الرجل وترائب الرجل ومن صلب المرأة وترائب المرأة . ثم إنا نعلم أن النطفة من جميع أجزاء البدن ، وهذه هى الحكمة فى غسل جميع الجسد من خروج المنى . كما أن المكث من الجوع يجد وجعاً فى ظهره وصلبه لخلو صلبه عما كان محتسباً فيه من الماء . ونحن إذا تتبعنا النطفة وكيف تصبح مختلطة ، فإننا نقول بتبسيط شديد إن الحمل إنما يحدث عن التقاء الماء (الحيوان المنوى للرجل) بالبويضة للأنثى ، وحين يتم هذا اللقاء يتحد الاثنان فى خلية واحدة ، ثم تنقسم هذه الخلية إلى خليتين ثم إلى أربع ثم إلى ثمان وست عشرة .. وهكذا لتصبح فى النهاية ملايين الملايين من الخلايا التى تكون الطفل الكامل المستعد لاستقبال الحياة بعد تسعة شهور .

ولكن هذا التبسيط الشديد يحتاج إلى بعض الشرح لعدد من النقاط :
أولاً : بويضة الأنثى تنطلق من مبيض السيدة مرة واحدة كل شهر ، وذلك فى منتصف الشهر المطمئن لها (حوالى ١٢ - ١٤ يوماً) من بعد بدء الدورة الشهرية للمرأة وغالباً ما يفرز أحد المبيضين بويضة كل شهر بالتتابع : من المبيض اليمين والشمال أما إذا حدث أن تقابلا مع الحيوانات المنوية فيحدث

(١٣) تفسير القرطبي .

الحمل في تومين اثنين أو ثلاثة أو أكثر والبويضة خلية متناهية في الصغر محاطة بعدة خلايا أخرى أصغر منها لحمايتها وتغذيتها وبعد خروج البويضة من البيض يلتقطها بوق الرحم وتسير ببطء مع التيار في البوق في انتظار مقابلة الحيوان المنوى ليتم الاتحاد بينهما والحمل ، أو ليحرفها التيار إلى الرحم ثم إلى الخارج بدون أن يشعر بها أحد على الإطلاق وبويضة الأنثى قليلة العدد : واحدة فقط كل شهر ثم هي تتحرك ببطء ودلال في انتظار الذكر ، ولها وسائلها الخاصة في اجتذاب الذكر بأنزيمات خاصة لها فعل السحر في هذا المضمار .

وبعكس بويضة الأنثى فالحيوانات المنوية للرجل يقدر عددها بالملايين في كل مرة وهي سريعة الحركة تنطلق بلا هوادة نحو هدفها الأمثل وهو الاتحاد مع البويضة (ماء دافق) ، وفي طريقها للبويضة تلاقى صعباً كثيرة في رحلتها الطويلة . فعند الاتصال الجنسي توضع هذه الملايين من الحيوانات في الجزء العلوى من مهبل الأنثى وهنا تقابلها عقبات مميّة . ذلك أن طبيعة إفرازات المهبل حمضية لا تستطيع الحيوانات المنوية أن تعيش فيها سوى بضع دقائق بالرغم من أن السائل المنوى قولى الطبيعة ليعادل الحموضة القاتلة في المهبل .. ولكن معظم الحيوانات تتغلب على تلك العقبات بالسباحة سريعاً إلى أعلى لتجتاز عنق الرحم . ولكي تمر الحيوانات (المهبليّة) بعنق الرحم فعليها أن تمر بأهوال أشد وأمر من حموضة المهبل ، فعنق الرحم مبطن بغشاء مخاطى كثير الانحناءات والانشعابات فيما يشبه قصور التيه أو (بيوت جحا) ، وفي هذا التيه يموت كثير من الحيوانات المنوية وهي تحاول إيجاد مخرج ، ولا ينجح في المرور خلال قناة عنق الرحم إلا ملايين قليلة من تلك الحيوانات المسكينّة التي كانت قد بدأت رحلتها منذ دقائق بكل جدية ونشاط . وتخرج الحيوانات التي نجت إلى الرحم نفسه لتقابل هولا جديداً - فالرحم تجويف يعتبر بالنسبة لهذه الحيوانات

الصغيرة تجويفاً واسعاً جداً تتخبط فيه بحثاً عن فتحة ضيقة لبوق الرحم وهي فتحة كُرأس الدبوس وبذا تهلك ملايين جديدة في هذه الرحلة ، ويصل عدد قليل من الحيوانات في بوق الرحم ويكون عليها أن تسبح في البوق بعكس اتجاه التيار فيه برغم أنه رفيع وملتح حتى تصل إلى البويضة ، وتتسابق الحيوانات التي وصلت للاتحاد بالبويضة ولكن حيواناً واحداً منها فقط هو الذى ينجح في هذا المضمار في الوصول إلى هذا القرار المكين ويتحد بالبويضة ، وتتج خلية ملقحة كاملة تنقسم لتصبح فيما بعد علقة (الزيجوت) .

أما العلقة : فهي الدم الجامد .. والعلق الدم العبيط أى الطرى وقيل الشديد الحمرة وهي تلتصق بواسطة المشيمة في جدار الرحم ٤٠ يوماً لتصبح مضغة .

والمضغة : هي قطعة اللحم بقدر ما يعضج ومنه الحديث (ألا وإن في الجسد مضغة) وهذه الأطوار أربعة أشهر . قال ابن عباس : وفي العشر بعد الأشهر الأربعة ينفخ فيه الروح فذلك عدة المتوفى عنها زوجها - أربعة أشهر وعشر . وروى يحيى بن زكريا بن أبي زائدة حدثنا داود عن عامر عن علقمة عن ابن مسعود وعن ابن عمران : أن النطفة إذا استقرت في الرحم أخذها ملك بكفه فقال يارب ، ذكر أم أنثى ، شقى أم سعيد ، ما الأجل والأثر ، بأى أرض تموت ؟ فيقال له : انطلق إلى أم الكتاب فإنك تجد فيها قصة هذه النطفة ، فينطلق فيجد قصتها في أم الكتاب فتأكل رزقها وتطأ أثرها فإذا جاء أجلها قبضت فدفنت في المكان الذى قدر لها ثم قرأ عامر (يأياها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب) . وفي الصحيح عن أنس بن مالك - ورفع الحديث - قال : إن الله قد وكل بالرحم ملكاً فيقول : أى رب نطفة . أى رب علقة . أى رب مضغة . فإذا أراد الله أن يقضى خلقاً قال

الملك : أى رب ذكر أو أنثى شقى أو سعيد . فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيكتب كذلك فى بطن أمه - وفى الصحيح أيضاً عن حذيفة بن أسيد الغفارى : قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث إليها الله ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم يقول : أى رب أذكر أم أنثى .. » وذكر الحديث .

وفى الصحيح عن أبى عبد الرحمن عبد الله بن مسعود قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : « إن أحدكم - يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقه مثل ذلك ، ثم يكون مضغاً مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد .. » رواه البخارى ومسلم .

فهذا الحديث مفسر للأحاديث الأولى فإن فيه : (يجمع خلق أحدكم فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم أربعين يوماً علقه ، ثم أربعين يوماً مضغاً ، ثم يعث الله الملك فينفخ فيه الروح) . فهذه أربعة أشهر وفى العشر ينفخ الملك الروح وهذه عدة (المتوفى عنها زوجها) كما قال ابن عباس . سئل الأعمش : ما يجمع فى بطن أمه ؟ قال حدثنا خيثمة قال : قال عبد الله : إذا وقعت النطفة فى الرحم فأراد الله أن يخلق منها بشراً طارت فى بشرة المرأة تحت كل ظفر وشعر ثم تمكث أربعين يوماً ثم تصير دماً فى الرحم . فذلك جمعها وهذا وقت كونها علقه (١٤) .

(١٤) فترة الحمل تبلغ ٩ شهور عربية أو ١٠ شهور قمرية لاعتبار الشهر القمري ٢٨ يوماً وهذه الفترة قابلة للعجز والزيادة . وقد اصطلاح الأطباء على احتساب فترة الحمل ابتداء من أول يوم فى الحيض السابق للحمل مباشرة مضافاً إليه ٢٨٠ يوماً .

وليس معنى هذا أن المرأة الحامل لابد أن تضع مولودها فى هذا التاريخ بالضبط ، وإنما هناك احتمال أن يتقدم أو يتأخر الوضع أسبوعاً أو أسبوعين عن هذا التاريخ المحدد علمياً .

- ولم يختلف العلماء أن نفخ الروح فيه يكون بعد مائة وعشرين يوماً وذلك تمام أربعة أشهر ودخوله في الخامس كما بيناه بالأحاديث . وعليه يعول فيما يحتاج إليه من الأحكام في الاستلحاق عند التنازع وفي وجوب النفقات على حمل المطلقات ، وذلك لتيقنه بحركة الجنين في الجوف ، وقد قيل إن الحكمة في عدة المرأة من الوفاة بأربعة أشهر وعشر وهذا الدخول في الخامس يحقق براءة الرحم ببلوغ هذه المدة إذا لم يظهر حمل .

- ومذهب مالك رضي الله عنه أن النطفة ليست بشيء يقيناً ولا يتعلق بها حكم إذا لم تجتمع في الرحم ، فهي كما لو كانت في صلب الرجل ، فإذا طرحته المرأة علقه، فقد تحققنا أن النطفة قد استقرت واجتمعت واستحالت إلى أول أحوال ما يتحقق به أنه ولد. وعلى هذا يكون وضع العلقه فما فوقها من المضغة وضع حمل، تبرأ به الرحم، وتنقضي العدة، ويثبت به لها حكم أم الولد، وهذا مذهب مالك رضي الله عنه وأصحابه.

وقال الشافعي رضي الله عنه :

لا اعتبار بإسقاط العلقه وإنما الاعتبار بظهور الصورة والتخطيط فإن خفي التخطيط وكان لحماً فقولان بالنقل والتخريج والمنصوص أنه تنقضي به العدة ولا تكون أم ولد . قالوا : لأن العدة تنقضي بالدم الجارى فغيره أولى . والمضغة (مخلقة وغير مخلقة) : قال الفراء : (مخلقة) تامة الخلق (وغير

= وفي حالات نادرة جداً قد يتأخر الوضع كثيراً جداً فبعض الحالات : طال الحمل في إحداها حتى ٣٣١ يوماً وحالة أخرى إلى ٣٤٩ يوماً - ومثل هذه الحالات مشهورة تداولت المحاكم بعضها لإثبات الأبوة حيث حدثت الولادة بعد فترة طويلة من انفصال الزوجين (طيبك الخاص العدد ٧٠ - أكتوبر ١٩٧٤) ص ١٠٥ من مقال للدكتور (على البراءة) أخصائى أمراض النساء والولادة) .

مخلقة (السقط . وقال ابن الأعرابي : مخلقة قد بدأ خلقها وغير مخلقة لم تصور بعد . وقال ابن زيد : المخلقة التي خلق الله فيها الرأس واليدين والرجلين وغير مخلقة التي لم يخلق فيها شيء . قال ابن العربي : إذا رجعنا إلى أصل الاشتقاق فإن النطفة والعلقه والمضغة مخلقة لأن الكل من خلق الله تعالى . وإن رجعنا إلى التصوير الذي هو منتهى الخلقة كما قال الله تعالى : (ثم أنشأناه خلقاً آخر) . فذلك ما قال ابن زيد .

- والتخليق من الخلق وفيه معنى الكثرة فما تتابع عليه الأطوار فقد خلق خلقاً بعد خلق وإذا كان نطفة فهو غير مخلوق . (القرطبي) .

وأجمع الشافعي وأبو حنيفة : على أن المولود إذا استهل صارخاً يُصلى عليه فإن لم يستهل صارخاً لم يصل عليه . وقاله ابن المسيب وابن سيرين وغيرهما . وروى عن المغيرة بن شعبة أنه كان يأمر بالصلاة على السقط ويقول سموهم واغسلوهم وكفئوهم وحنطوهم فإن الله أكرم بالإسلام كبيركم وصغيركم قال ابن العربي : لعل المغيرة بن شعبة أراد بالسقط ما تبين خلقه فهو الذي يسمى وما لم يتبين خلقه فلا وجود له .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مَّخْلُوقَةٍ غَيْرِ مَخْلُوقَةٍ لَّنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنَقْرُفِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَمُوتُ وَمِنْكُمْ مَّن يَرُدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مَن بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا) . (سورة الحج) .

وفي هذه الآية يبين الله لنا قدرته بتصرفه أطوار الخلق .. (ونقر في الأرحام ما نشاء) قال تعالى : (ما نشاء) وليس من نشاء لأنه يرجع إلى الحمل

أى نفر فى الأرحام ما نشاء من الحمل ومن المضغة وهى جهاد فكئى عنها بلفظ ما (١٥) .

وقوله تعالى : (ثم نخرجكم طفلاً) أى أطفالا فهو اسم جنس وأيضاً فإن العرب قد تسمى الجمع باسم الواحد . قال تعالى : (أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) . وقال تعالى : (فإن طبن لكم عن شىء منه نفساً) والطفل يطلق من وقت انفصال الولد إلى البلوغ : (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين) وولد كل وحشية أيضاً طفل ، ويقال جارية طفل وجاريتان طفل وجوار طفل وغلام طفل وغلما ن طفل . ويقال أيضاً : طفل وطفلة وطفلان وطفلتان وأطفال ولا يقال طفلات . وأطلقت المرأة أى صارت ذات طفل والمطفلة : الظبية معها طفلها وهى قريبة عهد بالتاج . والطفل (بتشديد وفتح الطاء) هو الناعم يقال جارية طفلة (أى ناعمة) وبنان طفل .. وقد طفل الليل إذا أقبل ظلامه .

والطفل : بعد العصر إذا طفلت الشمس للغروب . والطفل أيضاً : مطر . (ثم لتبلغوا أشدكم) : أى كمال عقولكم ونهاية قواكم . (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر) : أى أخسه وأدونه وهو الهرم والخرف حتى لا يعقل .

(لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً) . قال تعالى : (ومن نعمه ننكسه فى الخلق) .

(١٥) نقصد هنا الكلام عن الإقرار والإخراج (السقط) وليس عن الإجهاض .. فتلك قضية أخرى تحرمها الأديان إلا لضرورة يقررها الأطباء للتخصصون . وليس هنا موضع بحثها . كذلك لم نقصد أن نعرض هنا لعقم الرجل وعقم المرأة أو وسائل منع الحمل وغيرها حيث يمكن أن تكون تلك دراسة مستقلة .

وكان الرسول ﷺ يدعو فيقول : (اللهم إني أعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من الحين وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر) . أخرجه النسائي . عن سعد (١٦) .

* * *

ولسنا نريد هنا أن نعرض للوفاة (الموت) ولكننا نقف لنقول لبني البشر بعد ما أوضحناه ألم بأن للذين ألغوا عقولهم وعطلوا حواسهم أن يتدبروا خلق الله حتى في أنفسهم وهو الذات الإنسانية (؟؟ أم على قلوب أقمالها؟؟ فإذا كانت لديكم حجة تذرعون بها في ضلالا تكتم فـ (هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) و (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه) . (يأياها الناس ضرب مثل

(١٦) في بحث قام به الدكتور/عبد عصام فكرى أستاذ الأمراض الباطنية بجامعة الإسكندرية ونشرته مجلة جمعية أمراض الشيخوخة الأمريكية ذكرت بعض الأرقام التي تصور ما الذي يحدث في الجسم عندما يتقدم العمر من أهمها :

الوزن : يصبح المتوسط ٦٢ كيلو جرام بدلا من ٧٠ كجم (المتوسط في سن الشباب) .
 الطول : يصبح المتوسط أقل بين ٣ ، ٥ سنتيمترات (لعدم استقامة العمود الفقري) .
 القلب : يصبح أصغر وزناً (من ٢٨٠ - ٣٤٠ جراما في الشباب إلى ٢٥٠ جم في الشيخوخة) .
 الكبد : يصبح أصغر وزناً (من ١٥٠٠ - ١٦٠٠ جراما في الشباب إلى ١١٠٠ جم في الشيخوخة) .
 الرئتان والمنخ : الرئة اليمنى من ٦٢٥ جم إلى ٤٥٠ جم واليسرى من ٥٦٥ جم إلى ٣٥٠ جم والمنخ من ١٢٥٠ - ١٤٠٠ جم في سن الشباب إلى ٩٠٠/١١٢٠ جم في سن الشيخوخة) .
 الكليتان : من ١٧٠/١١٥ جم إلى ١٣٠/٦٠ جم .
 الطحال : من ١٠٠/٢٠٠ جم وأحياناً إلى ٥٠ جم .
 الخصيتان : من ٥٠ في الشباب إلى حوالي ٢٥ جم - كذلك ينخفض وزن أمام الرحم في المرأة من ٦٠ جم إلى ٤٠ جم ووزن المبيضين من ١٢/١٠ جم إلى ٤ جم .
 أوزان ثابتة : الغدة الدرقية - غدة فوق الكلية .
 أوزان تزيد : البروستاتا هي العضو الوحيد الذي يزيد وزنه مع الشيخوخة (من ٨ جم في سن الشباب إلى ٥٠ أو ٦٠ جم في سن الشيخوخة) .

فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن
يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . ما قدروا الله
حق قدره إن الله لقوى عزيز) .

البَابُ الثالث

القرآن والتربية الجنسية

(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة)

(الروم)

(وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات)
(النحل)

القرآن والتربية الجنسية

في القرآن منهاج للحياة الدنيا كما أن فيه بصائر للآخرة .. فالقرآن يعلمنا تفاصيل الحياة العملية الفاضلة كما يريدنا الله وكما ينبغي لها أن تكون بمقياس الفطرة السليمة .. والقرآن لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .. حتى التربية الجنسية .

يقول موريس بوكاي^(١) :

هناك آيتان قرآنيتان تخصان العلاقة الجنسية . ويذكر القرآن ذلك بألفاظ تربط بين الرغبة في الدقة والاحتشام اللازم . وعندما نرجع إلى ترجمات وتفسيرات هاتين الآيتين فإن الاختلاف بينها هو أول ما يسترعى الانتباه ، ولقد ترددت طويلاً أمام تفسير هاتين الآيتين وإني مدين بالتفسير الذي أقدمه لهاتين الآيتين للدكتور عبد الكريم جبرو ، الأستاذ السابق بكلية الطب ببيروت . وفي هاتين الآيتين يقول الله تعالى :

(خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والثرائب) . الآيتان ٦ ، ٧ من سورة الطارق . يشير النص القرآني إلى منطقة الرجل الجنسية بكلمة (صلب) .. أما المنطقة الجنسية للأنثى فيشير إليها بكلمة (ثرائب) وهي جمع . ويختلف هذا التفسير عن ذلك الذي كثيراً ما يعطيه المعلقون الفرنسيون والإنجليز إذ يقولون : (خلق الإنسان من سائل منتشر يخرج بين العمود الفقري وعظام الصدر وليس هذا التفسير مفهوماً بشكل كاف) .

(١) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم - موريس بوكاي - دار المعارف .

وتشير آيات^(٢) قرآنية إلى سلوك الرجال في علاقتهم الأنثوية مع نساءهم في ظروف متنوعة .

فأولا هناك التوجيه بالسلوك اللازم في مدة الحيض وتشير إلى ذلك الآيتان ٢٢٢ ، ٢٢٣ من سورة البقرة : (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين . نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم) .

والمعنى واضح تماما : فتحريم إقامة علاقات جنسية مع امرأة حائض أمر قاطع . أما الآية الأخيرة فيشير المعنى إلى الحرث الذي يسبق ، عند البادر ، وضع البذور التي ستنبت زرعًا جديدًا « الحرث » . إذن لابد أن يكون واضحًا لدى الإنسان أن الهدف النهائي للعلاقة الجنسية هو الإنجاب والعلاقات الجنسية مسموح بها في الليل فقط طيلة فترة الإفطار من شهر رمضان .. ففي الآية ١٨٧ من سورة البقرة يقول الله سبحانه وتعالى (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ... فالآن باسروهن وابتغوا ما كتب الله لكم) .

وعلى العكس من ذلك فليس هناك استثناء للحجاج في أثناء أيام الحج المحددة :

(... فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال ..) الآية ١٩٧ من سورة البقرة . فالتحريم هنا قاطع كتحریم الصيد والخصام وغيره في نفس هذه الفترة .

وفي الآية ٤ من سورة الطلاق : (واللائي يشن من المحيض من نسائكم إن

(٢) في كتاب موريس بوكاي (وتشير عبارات ...) .

ارتبثتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) .

والأمر هنا عن تلك الفترة التي تمر من إعلان الطلاق وحتى يصير فعلياً .. والنساء اللاتي (يثن من الحيض) في الآية هن اللاتي بلغن سن اليأس . وقد خصص القرآن هن احتياطاً فترة من ثلاثة أشهر بعدها تستطيع تلك النساء المطلقات اللاتي انقطع طمثهن أن يتزوجن .. أما بالنسبة إلى النساء اللاتي لم يحضن بعد فلا يكون الطلاق فعلياً إلا بعد الوضع .. وكل هذه التشريعات تتفق تماماً مع المعطيات الفسيولوجية . وبالإضافة إلى هذا نستطيع أن نجد في القرآن في النصوص الخاصة بالترمل ، نفس الأحكام السديدة .

بناء على كل هذه فالمقولات النظرية الخاصة بالتناسل والتوجهات العملية التي يصوغها القرآن فيما يختص بحياة الأزواج الجنسية ، نلاحظ أنه ليس هناك أى مقولة مما سبق الحديث عنه تتعارض مع معطيات المعارف الحديثة ولا مع ما يمكن أن يخرج منطقياً عنها .

* * *

هذا ما يقوله « مورييس بوكاي » وهو ليس بمسلم .. ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره وأن يشهد للإسلام حتى خصومه .. ذلك أن الإسلام لا يتكلم عن الأحكام خلصة ولا في الظلمة بل هو يواجه الحياة جهره ويسلط الأضواء حتى على طاقة الجنس فيعترف بها اعترافاً كاملاً صريحاً وقوياً .. ثم يحتاج مجرد مرحلة الاعتراف إلى مرحلة التنظيم والتقويم فيريها لا بالقمع والكبت ولكن بالتأديب والتهديب والأخذ منها بأعدل نصيب .. حتى إنه ليجعل للزوج صدقة في بضعه .. يقول الرسول ﷺ : « وفي بضع أحدكم صدقة » . قالوا يا رسول الله إن أحدنا لياتي شهوته ثم يكون له عليها أجر ؟ قال : « أرايتم لو وضعها في

حرام ، أكان عليه وزر ؟ » قالوا : نعم ، قال « فإذا وضعها في حلال فله عليها أجر . » رواه مسلم .

هكذا يكون الأمر وإلا فلا .. دون عناد ولا هروب .. ودون استنكار أو استقذار أو حطٍّ من قيمة هذا العمل الذي شرعه الله لعباده مع زوجاتهم حلالهم .. حفاظاً على عفة الزوج وإحصاناً للفروج .. ومنعاً لخلط الأنساب وانحرافات الأسر .. يتناول الإسلام هذه الطاقة المودعة أمانة في جسم الإنسان فيضبطها ويهذبها ويتظفها فلا يكون منها إلا ثمرة طيبة هي الذرية الصالحة .. كذلك فإن الإسلام ينظم هذه الطاقة حتى مع الشباب ممن لم يتزوجوا .. فيخاطبهم الرسول ﷺ بقوله : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء .. » وجاء : أى حصن وجنة يقيه من الانحراف .

بل إن الإسلام ليعتبر مسألة الجنس جزءاً من العبادة^(٣) فالنبي ﷺ يستحث على أدائها إذ يقول : « أكملوا نصف دينكم بالزواج » فإذا قيل إنه ينظر إلى الناحية الأخلاقية لا الجنسية . فهو الذى يقول : « حجب إلى من دنياكم ثلاث : الطيب والنساء وقرعة عيني في الصلاة » فيرفع الجنس من حيث هو جنس إلى مستوى الصلاة ، أظهر ما يتطهر له المؤمن ، ومستوى الطيب ، أزكى رائحة تنتعش لها الروح . وهو هنا إنما يتحدث عن المرأة الخليعة وليس الخليعة .

بل إن ما يصنعه المسلمون ولا يزال أتقيائهم حريصين عليه قراءة اسم الله قبل البدء في العملية الجنسية ليدل دلالة قاطعة على مدى نظافة الجنس في حس المسلم .. وهكذا يستجيب الإسلام لأهداف الحياة كلها في وقت واحد لا يغفل

(٣) الإنسان بين المادية والسلام - محمد قطب - (للمشكلة الجنسية) .

منها شيئاً ، ولا يقحمه إقحاماً على النفوس . فهو إذ يعرف دافع الجنس يعرف حق الحياة في استمرار النسل وحق الناس في إجابة الشهوة الطاغية . وإذ ينظف وسائل التنفيذ يعرف استهداف الحياة للارتفاع وقدرة الناس عليه ولا يكلفهم مع ذلك شططاً .

* * *

بتصور الإنسان العلاقة بين الرجل والمرأة على أنها الشيء الطبيعي الذي ينبغي أن يكون ، فهو يقر بأن الله تعالى قد جعل في قلب كل منها هوى للآخر وميلاً إليه ، ولكنه يذكرهما بأنهما يلتقيان لهدف هو حفظ النوع ، فمن المسلم به لدى (العلم) أن للوظيفة الجنسية هدفاً معلوماً وليست هي هدفاً في ذاتها . يقول تعالى : (نساؤكم حرث لكم ..) فالإسلام يجعل للفرد صفتين في آن واحد : صفته كفرد مستقل ، وصفته كعضو في الجماعة .. ونرى ذلك حتى في المسألة الجنسية . فإذا ألقى الله في قلب كل جنس هوى للجنس الآخر ، فالإسلام يهدف من وراء ذلك أولاً إلى إنتاج النسل . وهو الوظيفة القريبة المباشرة . ولكن هذا جزء من تناسق أكبر .. فهناك الأسرة ومالها من مكانة رفيعة في التشريع الإسلامي باعتبارها نواة المجتمع الصالح الذي يمثل مع غيره من المجتمعات الإنسانية الراقية .

* * *

والقرآن يصف العلاقة بين الرجل والمرأة في تعبير دقيق جميل فيقول : (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) وهو تصوير بارع لعلاقة الجسد وعلاقة الروح في آن . فاللباس ألصق شيء بيدن الإنسان وهو السر الذي يستتر به وهو في الوقت ذاته يناسب قده لا ينقص ولا يزيد ، والرجل والمرأة ألصق شيء ببعضها ببعض ، يلتقيان فإذا هما جسد واحد وروح واحدة . وفي لحظة يذوب كل منهما

فى الآخر فلا تعرف لها حدودًا . وهما أبدًا يهفوان إلى هذا الاتصال الوثيق الذى يشبه اتحاد اللباس بلباسه .

ثم هما ستر ، كل واحد للآخر فليس أحد أستر لأحد من الزوجين المتآلفين ، يحرص كل منهما على عرض الآخر وماله ونفسه وأسراره أن ينكشف منها شيء فتنهيه الأفواه والعيون .. وإذا كانت العلاقة بين الرجل والمرأة وثيقة إلى هذا الحد فقد وجب أن يلتقيا ليكون كل منهما لباسًا لصاحبه ، يزينه ويكمله ، ويلتصق به للوقاية والستر . فلا مناص حين يلتقى الجنسان من أن تختار للبشرية بين أحد وضعين :

- أن تكون جميع الإناث لجميع الذكور على الطريقة الغالبة بين الحيوان^(٤) .

- أو تكون امرأة واحدة لكل رجل ، ورجل لكل امرأة - فى الأغلب - ، وكان الأمر الطبيعى أن يختار الدين هذا الوضع الأخير الذى يحقق من المتاع والطمأنينة أكثر مما يحقق النشوة المسعورة ، التى تخلف القلق العصبى والاضطراب النفسى .

(٤) بعض الحيوانات العليا تنشئ نظامًا قريبًا من نظام الأسرة فلا تعترف بالفوضى الجنسية من جانب الأنثى ، فإذا اشتبهت هذه الفوضى أحد الذكور قامت المعارك التى تنتهى بانتصار الأقوى وإذعان الضعيف .

الزواج أحسن وسيلة لأحسن غاية وهي الإنجاب

يقول الله سبحانه وتعالى :

(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ..) فالقرآن يقرر لنا أن العلاقة بين الرجل والمرأة ليست مجرد علاقة إشباع شهوة^(٥) الفرج بل هي علاقة تكامل من أجل العمران وليست مجرد حاجة شهوانية .. ففياً بين الرجل والمرأة تكامل في الخلق ، والعلاقة بينهما مودة وسكن ، وهي علاقة لا تنقطع بمجرد الفراغ من قضاء الحاجة الغريزية أو حتى بعد الإنجاب ، بل إنها يتآزران ويتعاونان في تربية أبنائهما بكل ما يطيقان من الرعاية والعناية حتى يؤثرانهم على نفسيهما مودة ورحمة .

ولهذا شرع الله سبحانه وتعالى نظام الزواج ليكون صلة دائمة وقوية ونظيفة ومنزهة عن مجرد العوارض التي تزول .. ليكون إطاراً صحيحاً وقوياً لنشأة هذا النبت الجديد من بنى آدم ، وحتى ينعم الأبناء بدفع الأسرة وحماية الأب وحنان الأم ، وحتى يتعلم النشء على يد الوالدين قوانين التعامل مع المجتمع المحيط بهم وغيره من المجتمعات ليشبوا على الآداب والتقوى .

ولأن الأركان مجرد علاقة نزوة بين الذكر والأنثى لرأينا الطرفين وكل منهما يحاول التخلص من ثمرة هذه العلاقة والتهرب من حمل مسئولية العناية بها

(٥) قصد فرويد وبعض علماء الغرب أن الجنس مجرد حاجة من حاجات الإنسان التي لابد من البحث عن عديد من الوسائل لإشباعها مما تتج عنه ما نسمع به اليوم من عقود الزواج بين الرجل والرجل أو المرأة والمرأة مما تعافه الفطرة السليمة وتحرمه الأديان .

وتريتها مما ينعكس على الطفل ، فيصيبه بالعقد النفسية والأمراض العضوية ، فيتحول إلى المجتمع المريض الذى شاء له قدره أن ينشأ فيه فيتقم من أعضائه ويدمره تدميراً .. وما بهذا تستقيم الحياة ولا تصلح الدنيا ، فالزواج المشروع هو أحسن وسيلة لأحسن غاية وهى الإنجاب .. وفى الصفحات القادمة نطرح موضوع الاختيار فى الزواج .. وحكم الإسلام على الزواج بالأجنبيات وحديث القرآن عن الأزواج والزوجات .. وطموح الأنبياء للبنين ، على بساط البحث .. كما نعرض لأهمية الأسرة كنظام اجتماعى مشروع.

الاختيار فى الزواج^(٦)

الزواج رابطة مقدسة . تقوم على المعانى الروحية والعاطفية أكثر مما تقوم على أى معنى آخر . وهو عقد لا تراد به صفقة عابرة . ولا أمر وقى سريع الزوال . بل هو عقد يرد على اشتراك طرفيه فى الحياة شركة يراد بها الدوام والاستقرار . شركة تامة فى شئون الحياة . ما خفى منها وما ظهر ، ما عظم منها وما صغر . شركة متشعبة النواحي متشابكة الأطراف ثقيلة الأعباء كثيرة التبعات . وعقد هذه طبيعته . وهذا جلال شأنه . يجب أن يتمتع كل من طرفيه بالإرادة الكاملة والرضا التام أكثر من أى طرفين فى عقد آخر ، فليس لكائن من كان أن يكرهه على الإقدام عليه ولا على الارتباط بمن لا يريد الارتباط به . ومن حقه أن يترك فى هذا شأنه . لا سلطان عليه إلا لإيمانه وعقيدته وظروفه التى هو أدرى بها من غيره . على ألا يمس حقوق الآخرين وألا يسعى استعمال هذا الحق . وأن يبغى المشورة ويسعى إلى الاستقامة حينما يكون فى حاجة إليها .

والآيات الكريمة . والسنة النبوية الصحيحة التى وردت فى هذا الأمر كان

(٦) لفضيلة الشيخ محمد أحمد فرج السنورى - من كتابه الأسرة فى التشريع الإسلامى .

من وراء دلالاتها وإرشاداتها ما جعل هذا الموضوع من المسائل الاجتهادية التي اختلفت فيها آراء الأئمة والفقهاء . وكثرت أقوالهم . وفي طليعة هذه الأقوال ما ذهبت إليه طائفة منهم : وهو أنه متى بلغ كل من الفتى والفتاة الحلم عاقلًا فليس لأحد من أوليائه ولا من غيرهم أن يحمله على الزواج ولا أن يجبره على الزواج بمن لا يريد ، ولا أن يحول بينه وبين الزواج بمن يرغب في زواجه . اللهم إلا أن يكون زواجًا يجلب العار إلى قوم الفتاة . فإن لأقربهم إليها عصوبة حتى الاعتراض على هذا الزواج . وطلب التفريق بين الزوجين . وما ذهبت إليه هذه الطائفة هو الذى يجرى عليه العمل بالدولة المصرية من زمن بعيد .

وإذا كان العمل بهذه الأحكام قد أطلق الحرية للجنسين فى أمر الزواج وحمل الفتيات من استبداد الآباء ومن إليهم . ووقاهن شر نزعات الأولياء التي تنشأ فى كثير من الأحيان عن بواعث بعيدة عن رابطة الزوجية . وسعادة الزوجين .. فإنه من ناحية أخرى لا يحقق الغرض المرجو فى بعض الأحيان وترك فى بنائها التشريعى ثغرة لاتزال ريح الشر والفساد تهب منها .

لا ريب فى أن الفتيان والفتيات فى أول مرحلة من مراحل النضوج الجسمي ، يملكون بطور هو الغاية فى الخطر : طور تملؤه فورة الشباب الجامحة طور قليل الخبرة والتجارب بل لا خبرة فيه : طور لا يزال فيه كل من الوازع الدينى والوازع الخلقى لبن العود . والاختلاط اليوم بين الفتيات والفتيان قد بلغ الذروة فى الطرقات . وفى الحقل وفى المصنع وفى المتجر . وفى دور العلم . وفى كل مرافق الحياة ، والحياة اليوم قد امتلأت بأساليب من الخبث والخذعة لم تكن مألوفة من قبل . والسلطان الأدبى لتقاليد الأسرة ضعفت شعلته . ومن هذه العوامل مجتمعة وقعت بيننا مآسى هى الغاية فى القسوة ، شهدت دور القضاء الكثير منها ، وهذه المآسى وقعت وتقع على غير علم من أسرة الفتاة

وأهلها . وعلى الدوام تبدأ المأسة باسم الزواج في ظروف تحمل على اعتقاد أن الأسرة لا ترضى عنه . ولو أن الفتاة تعلم أنها حرة طليقة في شأن زواجها لا معقب على إرادتها لتبدل الحال غير الحال ولوقاها الله شر الوقوع في شرك النذل الجبان .

على أن اتساق التشريع . وما يجب من إعطاء كل أمر ما يستحقه من العناية وما يلائمه من الأحكام بإيمان ما نحن عليه اليوم ، حيث تنتهى الولاية على النفس بمجرد بلوغ الحلم . ثم لا رقيب ولا حسيب ولا استعانة مفروضة في أمر جلل كالزواج حتى في الطور الملىء بالمكاهة . أما الولاية على المال فتبقى إلى نهاية الحادية والعشرين عظم المال أو قل . وهذه التفرقة لا يعرف لها مثيل في الشريعة الإسلامية . فكما ترى انتهاء الولاية على النفس ببلوغ الحلم كذلك تقول في الولاية على المال . والشرائع الوضعية كما تستبقى الولاية على المال إلى ما فوق العشرين تستبقى الولاية على النفس كذلك وهذه التفرقة تفرقة مقبولة الوضع . فالمال مهما عظم شأنه لا يمكن أن تصل الولاية عليه مرتبة الولاية على النفس وبخاصة فيما يتصل بالحياة الزوجية والأنساب والأعراض .

ومن رأيي أنه لابد لنا فيما قبل بلوغ الفتاة الخامسة والعشرين من الأخذ بما ذهب إليه بعض الأئمة من أنه لا يحل للمرأة نكاح . ثيبًا كانت أو بكرًا ، إلا بإذن وليها ، بمعنى أنه لابد لصحة الزواج فيما بين بلوغ الحلم وانقضاء الخامسة والعشرين من اجتماع رضا الزوجة وإذن الولي وإن لم يأذن الولي ترفع الأمر إلى القضاء فيأذن لها متى تبين أن في هذا الزواج مصلحة لها .

والصفات التي يجب أن تكون الأساس الصحيح لاختيار المسلم لزوجته والمسلمة لزوجها قد بينت في مواطن كثيرة من الكتاب الكريم والسنة الصحيحة وهى الصفات التي تكفل للأسرة سلامة البنيان .. وتحقق المقاصد السامية التي

شرع من أجلها الزواج : وهى الإحصان والعفاف . والتوالد .. والسكن والمودة والتراحم وما إلى ذلك . وإذا ما توافر الحرص على هذه الصفات عند الاختيار فلا حرج على مسلم ولا مسلمة أن يتغنى منها صفات أخرى يرغب فيها كالمال والجمال والجاه وما إلى ذلك . أما من لا يبالى بالصفات الأساسية ولا يعنيه من أمر الزواج إلا أن يكون صفقة تجارية . أو طريقاً لشهوة بهيمية فإنه آثم قلبه . وخارج على تعاليم دينه . وهذا هو الذى توعده رسول الله ﷺ بنجية الأمل . وانعكاس الرجاء . فقد قال عليه الصلاة والسلام : لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن . ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطفين . ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة خرماء سوداء ذات دين أفضل . وجاءه رجل فقال يا رسول الله إني أحببت امرأة ذات حسب ومنصب ومال إلا أنها لا تلد أفأتزوجها ؟ فنهاه . ثم أتاه الثانية فنهاه ثم أتاه الثالثة فقال له : « تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم . » وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً : « من تزوج امرأة لعزها لم يزد الله إلا ذلاً . ومن تزوجها لما لها لم يزد الله إلا فقراً . ومن تزوجها لحسبها لم يزد الله إلا دناءة . ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن يغض بصره ويحصن فرجه . أو يصل رحمه . بارك الله له فيها ويبارك لها فيه » .

الزواج بالأجنبيات

ولست أعنى بالأجنبية فى هذا المقام إلا الأجنبية غير المسلمة ، أما المسلمة فإنها لا تسمى فى عرف فقهاءنا أجنبية معها كانت دارها . وزواج المسلم بغير المسلمة نزل فيه من الكتاب آيات ووردت فيه من السنة

آثار وعند النظر في هذه الأدلة اتفق أئمة المسلمين على أن زواج المسلم بغير المسلمة زواج باطل لا يصح بحال إذا لم تكن كتائية . أما الكتائية إذا كانت يهودية أو نصرانية فقد اختلفوا في صحة زواج المسلم بها . فذهب طائفة منهم إلى أنه زواج باطل وذهب جمهورهم إلى أنه زواج صحيح . ومن هؤلاء الإمام الشافعي رضي الله عنه الذي اشترط لصحته أن تكون من قوم عُلِمَ أن آباءهم الأولين آمنوا بموسى عليه السلام قبل التحريف وبعثة عيسى عليه السلام على تفصيل في بنات إسرائيل أو من قوم علم أن آباءهم الأولين آمنوا بعيسى عليه السلام قبل التحريف وبعثة محمد ﷺ . أما إذا علم عن قومها خلاف هذا أو جهل حالهم فإنها تكون محرمة على المسلم كغير الكتائية . وهذا الشرط يقضي بتحريم كثير من الكتائيات في هذه الأيام .

ومها يكن أمر الخلاف في صحة زواج المسلم بالكتائية فإنه لا خلاف بين أئمتنا في أن هذا الزواج مستثقل مذموم . وقد صرح الإمام مالك رضي الله عنه وغيره بأنه ثم محرم وإن كان زواجاً صحيحاً . وإذا كان بعض أصحاب رسول الله ﷺ قد تزوجوا كتائيات فإن هذا لم يكن منهم إلا في حالة الضرورة ، فقد سئل جابر بن عبد الله عن نكاح المسلم اليهودية والنصرانية فقال : تزوجناهن زمان الفتح بالكوفة مع سعد بن أبي وقاص ونحن لا نجد المسلمات كثيراً فلما رجعنا طلقناهن .

ومع أن هذا لم يقع إلا من نفر يسير . وكان عن حاجة . وكان إبان حرب واغتراب . فإنه أثار ثائرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه . فحينما بلغه هذا الأمر غضب غضباً شديداً . وهم أن يسطو على طلحة وحذيفة . وكتب إليهما يأمرهما بالمفارقة . وكان مما قاله : إنه يخشى أن يتركوا المسلمات ويقعوا في حبال الوضعيات ، ألا رحم الله أمير المؤمنين ورضى عنه وأرضاه فلو

أنه كان حاضر أمرنا لأعمل سوطه لادرتة . ولوقتنا غضبته شر ما نعانى من بلاء .
فقد فشا فينا ترك المسلمات والزواج بالخطالة من الأجنيات بعد أن تسلط
الأجانب على المسلمين في أقطارهم . وارتحل أبناءنا إلى ديارهم .

إن الفوارق بين المسلم وبين هذه الأجنبية فوارق جسيمة جداً لا يلتقيان معها
فيها مفترقان في الدم واللغة وهو شرقى وهى غربية تخالفه في الإحساس والشعور
وفي النشأة والتربية وفي الأخلاق والعادات والتقاليد .

ثم إنهم ينظرون اليوم إلى الشرقيين وكأنهم ينظرون من شاطئ إلى الأغوار
البعيدة . فمع كل هذه الفوارق ليس لأحد أن يرجى تحقق المقاصد التي شرع
الزواج من أجلها . . ولا أن يرتبط هذان الزوجان بالرباط الروحي الصحيح .
وما ترى هذه الأجنبية تغض عن كل هذا بدافع من المحبة المخلصة والولاء

المقيم ولا نخالها إلا باحثة عن سداد من عوز بعد عوز بعد أن ضاقت عليها
بلادها ، أو ملتزمة المتعة بالعيش الناعم وبلاد السحر والجمال . أو ساعية
لاحتلال أصغر يكون نواة لاحتلال أكبر . ولئن قلنا إن من الأجنيات من
يدفعها أول الأمر خالص الودّ فهذا لن يكون سوى أمر عارض لا يلبث أن
يزول . وترى الطبع قد غلب التطبع وأن لنا في حوادث الماضي والحاضر لأبلغ
العظات .

ولن ينال المسلم من هذا الزواج إلا لوثة في دينه . فمن حق هذه الأجنبية أن
تأكل وتشرب في بيته ما هو حل لها ومحرم عليه . ومن حقها أن تؤدي فيه شعائر
دينها . وبهذا تصبح حياتها المترلية خليطاً من إيمان وكفر . ثم من يدري ماذا
تكون العاقبة ؟ وما الذي تجر إليه المجاملة أو يدفع إليه سلطان المرأة ومهاكان أمر
ما بينهما من الروابط الروحية الحقّة فإنه على أية حال مفتون بها وهو لا بد متودد
إليها وفي هذا التودد نقصان دينه . وقال أصدق القائلين (لا تجد قومًا يؤمنون

بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم .

ومتى اعتبرنا فتنة بها ويقومها . واعتبرنا شأن دولته ودولتها من ناحية السلطان والنفوذ واعتبرنا أنه في الأعم الأغلب لم يدفعه إليها إلا مركب النقص المشوب بسوء التقدير، أو رغبته في أن تكون عوناً له في الوصول إلى مآربه استناداً إلى سلطان قومها . . ، متى اعتبرنا كل هذا عرفنا كيف يكون سلطانها على بيته وسيرته . فهي مطلقة الإرادة في بيته وعاداته وتقاليده . ثم لا تزال تصنع به ما تصنع حتى تذوب شخصيته وتنحل قوميته ويصبح أجنبياً في وطنه .

ثم تأتي كارثة الأولاد وتربيتهم ، فهم في يدها عجيبة لينة طيعة تغرس في نفوسهم منذ الطفولة الأولى ما تحب وتهوى . ويألفون من أعمالها وسيرتها ما يطغى على تعليم دينهم ويطغى نور الإيمان في قلوبهم ، ويميت القومية في نفوسهم . فلا تلبث حتى ترى نسلأ هجيناً لا يأبه لدينه . ويعتز بخنولته . ويفاخر بأقوام أمه . ويولى ظهره لآبائه وأجداده . ويتنكر لقوميته ووطنه .

وفي الزواج بهؤلاء الأجنبية محاربة سافرة لفتياتنا . وجرح لكرامتهن على غير جرم ، وما يتغنى به بعض المفتونين من شبابنا تفضيله للأجنبيات عليهن ليس إلا خيالاً ووهماً وأباطيل في أضاليل .

وإذا ما تعارضت المصالح القومية كانت فطرتها حرباً على قومها ، وعيناً لقومها عليهم ، ومن أجل هذا حرم كثير من الفقهاء القائلين بالصحة زواج الكناينة الحرية ، ومن أجله حرمت الدولة المصرية كغيرها الجمع بين زواج الأجنيات ومناصب السلك السياسى ، كما حرمت زواجهن على رجال الجيش . وسنت له عقوبات صارمة وليتها توسعت في هذا التحريم ، فالبلاد اليوم أحوج ما تكون إلى الرقابة .

يا قوم : لم يضيق الله علينا والفتيات المتعاملات الصالحات كثيرات فما لنا ولهذا الزواج المختلف في صحته ويطلانه المتفق على أنه ثقیل مذموم ؟ وما لنا وللزوجة التي حرمتها شریعتنا من حضانة أولادها متى عقلوا لأديان وما لنا ولزوجة .. لا تأمن دولتنا جانبها لا في سلم ولا في حرب ؟ ما لنا ولكل هذا ورسول الله ﷺ يقول (دَعْ ما يريك) ؟

يا قوم إن سد الذرائع واتقاء مواطن الشبهات أصل عظیم من أصول ديننا ، ومن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه . فمن كان يؤمن بالله الإيمان الكامل وكان باراً بنفسه وولده . وقوميته ووطنه عليه أن يقوم المفتونين من شبابنا ، وعليه أن يحارب هذا اللون البغيض من الزواج ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

حديث القرآن عن الأزواج والزوجات (٧)

(وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما) .
كما يطلق الزوج في الأعداد على مجموع الاثنين : يطلق على الواحد منها باعتبارها مكملًا لصاحبه زوجًا فلم يعد فردًا واحدًا.

وقد انبثقت الجماعة الإنسانية من زوج وزوجة كما نعلم، ثم امتد هذا الأصل حتى كان محللاً في الدنيا بالقبائل، والشعوب، ويملاؤن الحياة وهذا ما يجمعه القرآن في قوله تعالى : (يأياها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل...).

فإن تكن هذه الشعوب والقبائل فروعاً محدودة هنا وهناك ، فالأصل فيها زوجية بين ذكر وأنثى .

(٧) فحات القرآن - الشيخ عبد اللطيف السبكي - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

والقرآن الكريم يتجه نحو هذه الزوجية بشيء غير قليل من عنايته ، ويتحدث عنها في تصرفات متنوعة ، حتى ذكر لفظ الزوجية في الجانب الإنساني أكثر من خمسين مرة .. وسلك بنا في شأنها مسالك عدة : لتقف على وجهة الإسلام في شأن الزوجية من كل ناحية ، ونكون على تمام المعرفة بهذه القاعدة العمرانية التي أقيم عليها البناء الضخم في تكوين المجتمع البشرى عامة .

ويسير بنا حديث القرآن في اتجاهات أصيلة ، لا يقل أحدها عن الآخر : فهو يذكرها - أولاً - في سياق الامتنان بما فيها من بهجة واطمئنان، منذ انعقدت الزوجية في صدر التاريخ بين آدم وحواء .. ومنذ جعل هذا الارتباط عيداً شخصياً للزوجين .. حتى جعل الله الوثام بينهما ، في ظلال الجنة : بين طيبات من الرزق ، وألوان من المتاع ، والغبطة (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما) .

وفي هذا التعبير إثارة للمسيرة في نفس آدم بأول متعة جنسية يصادفها .. وفيه إشعار له ولزوجه بأن الهناءة لا تكون في وحشة الانفراد ، وإنما تكون توافقاً بين الزوجين في استقبال الحياة المشتركة ، وتبادل البهجة ، والامتزاج في أنس الاجتماع والمجانسة في الميول ، حتى ولو في رحاب الجنة .

وذلك ما يصرح به القرآن في قوله تعالى :

(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها) .

(هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها) .

فالسكون هو الهدوء من الحركة ، والسكن الروحي هو الاطمئنان إلى الزوجة وهدوء الخاطر بيجانها من شواغل الحياة في مجال الأعمال والكفاح .

وذلك سكون يلتمسه الزوج في مأواه الخاص به وبزوجته .

وفي ظلال هذا السكون يتوثق الرباط الزوجي ، وتأتلف العواطف . وتنشأ المودة ، والتراحم بين الحليلين (وجعل بينكم مودة ورحمة) .

ثم يذكر - ثانيًا - زوجية الإنسان في معرض الامتنان بأننا نتاج لزوجية معقودة بين اثنين . وأن نسبنا في الإنسانية غير مدخول بما يشينه من سفاح ، وليس نتيجة لمجرد نزوات جنسية خاطفة ، كما يحصل بين الحشرات الدنيئة والحيوان والطير . يقول تعالى : (يأياها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) .

فالأب واحد ، والزوجة مشتقة منه في أول وجودها ، ثم هي ثانية اثنين معه وفي هذا تركية ثانية للإنسان بتأكيد نسبه من طريقها المشروع . ولعل هذا تلميح في قوة التصريح بأن العلاقة بين الجنسين ينبغي أن تكون على النمط المشروع من بدء الخليقة .

أما العلاقة الناجمة عن دوافع الغريزة وحدها : دون ضبطها بما يعتبر توثيقاً فقيها انحراف عن الأصل . وهي اندماج في الهمجية البهيمية .. وبعبارة الأنساب التي يراد الحفاظ عليها ، لتكون بذوراً صالحة لتنشئة مجتمع قوى البناء (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) . فالزوجية الصحيحة هي التربة الخصبة لإنبات البنين والحفدة ، وهؤلاء هم السلسلة الإنسانية في نظمها الصحيح .

وهم الذين يتشعبون إلى فروع شاحخة في الآدمية الكريمة : لا يغض منها وضاعة النسب الملق على غير تنسيق مشروع (وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً) .

وإذا كان هذا كله تعزيزاً للإنسان ، وتكريماً له على كل ما سواه في العالم الأرضي ، فكيف لا يكرم الناس أنفسهم في تكوين أسرهم ، ومجتمعهم وكيف

بينون الأنساب على شبه من الباطل ، بعد أن عاهد الله خلقه بتشريعه للزوجية أن يتوها على حق صراح .

إن الزوجية في نظر الدين، وفي نظر الواقع من حياتنا كمال ضرورى للإنسان : رجلاً أو امرأة .. فإن الانفراد شقوة كما نشهد ، أو هو على الأقل نقصان في المتاع حتى ولو كان في الجنة .

وإن الزوجية حصانة من مطاوعة الغريزة في جموحها .. وفيها درة للشبهة وفيها وقاية للسمعة من قالة السوء .

وإذا كان جسم الإنسان بحاجة قصوى إلى لباس يقيه البرد والحر ، وعاديات الهوام ، ويضفى عليه جمال المنظر ، حتى لا يكون شبيهاً بالحيوان في ابتذاله ، وتكشف سوءاته . فإن القرآن يعتبر الزينة وقاية للإنسان من وساوس الشيطان في حياة العزلة ، ويحفظ عليه ثقة الناس من ناحية العفة ، والصيانة ، والاعتصام بالكرامة .

وهذا ما عناه القرآن فيما نفهم من قوله تعالى عن الزوجات : (هن لباس لكم) ومن قوله تعالى عن الأزواج : (وأنتم لباس لهن) .

فكل من الزوجين وقاية للآخر من نقائص كثيرة ، كما يقيه اللباس من أضرار حسية ، وكل من الزوجين حلية وجمال للآخر ، كما يكون اللباس حلية ، وجمالاً للإنسان .

وما يشير إلى ذلك قول الرسول ﷺ من تزوج منكم فقد حفظ نصف دينه ، فليتب الله في النصف الآخر . يريد النبي ﷺ أن نصف الدين في صيانة العرض بالعفة الجنسية .

وهذا جانب إنسانى يستوى فيه الأنبياء وغير الأنبياء ، على ما هو مفروض

من عصمة الأنبياء عن الزلل . ولكن الطبيعة البشرية لا تقي إنساناً عن قضاء
الوטר ، إلا لسبب مانع .

وإذا كان في الزيجة كمال شخصي ، فمحمد ﷺ - أولى بأوفر نصيب من
الكمال . وهو لم يكن بدءاً من الرسل في هذا ، ولا في غيره .

وكانت شرائع الأنبياء قبله تجيز الجمع بين عشرات من الزوجات ، ومحمد لم
يبلغ في هذا مبلغ أحدهم - كداود وسليمان - عليها الصلاة والسلام .
(ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية) .

هذا ، ولم تكن العزوبة كمالاً في رسول غير يحيى بن زكريا وعيسى بن
مريم - عليها السلام - وطبعاً ذلك لحكمة تلائم ظروفها عند الله .
وفرق ما بين الاثنين أن يحيى من أبوين ..

وأما عيسى فمن غير طريق الزوجية البشرية المعهودة .
ومع ما وضح من مباهج الزوجية في الحياة الدنيا فإنك تجد الكتاب
العزيز يشيد بها في اليوم الآخر : فإن الله سبحانه - يسوق إلى عباده المؤمنين ،
بشرهم بتحقيق ما وعدهم في قوله يوم القيامة : (ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم
تمحبرون) وليس هذا فحسب ، بل يعد الله عباده المتقين بزواج من نساء
الجنة - الحور العين .

(للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج
مطهرة ورضوان من الله) (وزوجناهم بحور عين) .
(وعندهم قاصرات الطرف أتراب) .
(وعندهم قاصرات الطرف عين . كأنهن يبض مكنون) . (كأنهن الياقوت
والمرجان) إلخ .

وإذا ربطنا أول الحديث بما وصلنا إليه وجدنا نعمة الزوجية ومتاعها مبدوءة في الجنة بين آدم وحواء .

ثم تمتد ، وترافق الإنسان في دنياه ، حتى تكون واصلة إلى نعيم الجنة إن كان مؤمناً في حياته .

وحديثنا عن الزوجية في الدنيا إنما نعى به الزوجية البريئة من الزيف ، ومن كل خسيصة يأبأها الدين ، والنبي ﷺ يقول : الدنيا متاع ، وخير متاعها الزوجة الصالحة .

والزوجية على هذا النحو مرجوة بين الزوجات الطيبات ، والأزواج الطيبين ، ولا مطمع فيها بين الزوجات الخبيثات والأزواج الخبيثين .

وما ينبغي لمن عرف شأن الزوجية وخطرها أن يتجه رجل طيب إلى زوجة خبيثة فإن الله يقول : (الخبيثات للخبيثين) فكلاهما أشبه بالآخر .

وكذلك ما ينبغي أن تتجه امرأة طيبة إلى زوج خبيث .. فإن الله يقول : (والطيبات للطيبين) وكلاهما أولى بالآخر .

والزوجية مع الحيطة في الاختيار تتعرض لهزات قد يديرها اختلاف الميول ، أو يتيرها تعثر الإنسان .

لذلك وضع الله لنا وقاية من سهام الشيطان ، فأوصانا بحسن العشرة والترقى بالزوجات وأن نحتكم إلى عدول نختارهم من الأقارب ، أو من في حكمهم لإصلاح ذات البين ، حتى لا تنهدم الحياة الزوجية لأى نفخة ينفخها الشيطان في عقدة الزواج بعد أن وثقها الله بين الحليلين .

فإن لم يكن للإصلاح أثره المنشود في الإمساك بالمعروف ، فليكن تسريح بإحسان ، والفرقة خير من العيش على كراهية وعناد (وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته) .

ونحن نرى في سياق الحديث أن القرآن يترفق كثيراً بالمرأة، ويحمل الرجل على الترفق بها حتى في ساعة الكُرْه ، واحتدام الخلاف فيصرفه عن الشطط في كرهها ، ويبعث في نفسه الأمل من جانبها ليرضى بها ، ويصبر على ما يكون منها (فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) .

ثم يوصيه حين الفرقة بالألا يحيف عليها في حق من حقوقها (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً تأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً ، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً) .. عهداً قوياً .

وهذه توصيات مسبقة بمثلها في صدر التعاقد الزوجي . لا يدخل الزوج في عقد الزواج إلا على ترفق بالمرأة .. وتحفظ من ظلمها في شيء . (فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان) .

فذلك كله حفاظ على المرأة أن يخذعها الرجل فيستبيحها في مراد من غير زواج مأذون فيه من الأهل ، أو يستغل سذاجتها في هضم صداقها ، أو يكون عقده عليها فيه موارد واحتيايل ، فذلك أشبه بالمخادنة أو السفاح .
وحيلة لهذا : اشترط الإسلام علانية الزواج ولو أمام اثنين فقط من الشهود العدول .

ونرى القرآن ينعطف بالحنو نحو الزوجة كثيراً فيصرح بأنها سكن للزوج وبأنها منبت الأولاد ، وبأنها متعة له ، حتى في الجنة إلخ .
هذا موجز من القول عن الأزواج والزوجات .. وعن تقدير الإسلام للمرأة وإشاداته بما لها من شأن في بناء المجتمع، وفي الحياة الخاصة وما يجب لها

على الرجل من رعاية ومن هذا الإيجاز تكون المرأة سامية في الإسلام ، وفوق المكانة التي يفرضها الزاعمون الذين يخطئون في فهم الوضع الصحيح للمرأة في القرآن .

وأنت ترى مزاعم كثيرة يرددها من لا يعرفون أو يعرفون ويتجاهلون ...
هداهم الله ، وزادنا إيماناً وحسن تطبيق .

* * *

.. ولم يكن حديث القرآن في هذا الشأن مقصوراً على من ذكرنا لك من إشادة بالزوجية وبيان أثرها في تقويم المجتمع . بل إنه أولى الأسرة كل عناية وجعل الأبناء الصالحين هم الغاية . . كما سنين في الصفحات التالية .
وأول ما يأخذه القرآن في ذلك : هو عنايته ببناء الأسرة من أول تكوينها على أساس سليم .. فهو يهيب بنا أن نبتعد عن سوء الاختيار للزوجة أو الزوج ، قبل أن تتورط في الزيجة ، ونتمتع في عقباتها .
فيلفتنا إلى ناحية كانت مستساغة قديماً ، ولا تزال مستشرية في بعض البيئات كالمرض الفتاك .

وهي مطاوعة الشهوة البهيمية في التزوج بمن لوثنه جريمة الزنى وعرف بها ..
ففي الإقدام على ذلك تهاون في بناء الأسرة وتطويع بها إلى مهاب الظنون .
والله تعالى يقول في ذلك : (الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة) .
ولفظ « ينكح » يراد منه العقد الزوجي .. أو الوطء ، كما تتسع لذلك اللغة ، والقصد على أى المعنيين تشنيع ، وتقبيح لجريمة الزنى ولشخصية الزانى ،
حتى لا ينبغي لامرأة حصان أن تتزوج برجل زان ، فإن شأنه أن يرغب في من
هى على شاكلته ..

وتزوج العفيفة به مرة عليها ، وخسة لها ، فلتعرض عن زواجه ، تحقيراً

له ، وترفعاً بنفسها ، وصيانة لرضها أن يتملكه الزاني المتبدل .. وليذهب إلى زانية مثله ، أو مشركة تستبيح الجرائم كلها . كذلك شأن الزانية (لا ينكحها إلا زان أو مشرك) .

فلا ينبغي لرجل كريم على نفسه أن يرغب في الزواج بزانية ، وإنما يرغب فيها من كان على شاكلتها في الفساد .. وترديد الأسلوب من جانب الزاني مرة ، ومن جانب الزانية مرة ثانية لتأكيد هذا التوجيه ، كما أكد به بأسلوب الحصر ، حتى كأنه لا يصح تزوج زان ولا زانية إلا بمثله ، ولا يرضاه غيرها ، لما فيه من الحساسية. وجرح الكرامة .

وإذا كان لفظ ينكح قاصراً على مجرد الوطء كان القصد تشريعاً على الزناة، لا بياناً لتشريع الزواج بهم.. وذلك وجه لا بأس به، ولكن حمل هذا اللفظ على عقد الزواج أوفى بالأغراض كلها: من تشنيع وتنفير من الزواج.. إلخ. ثم انظر ثانياً ..

نجد للقرآن مجالا آخر في البعد بالأسرة عن مواطن الزلل ، والحرص على تكوينها في إطار من الطهر والطمأنينة .

فلا يجعل الله تحذيرنا من الزواج بزنان ، أو بزانية فحسب ، بل يفسح وعينا لما هو أبعد من ذلك فيقول تعالى :

(الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات) فإن يكن الخبث وصفاً للكلمات السيئة وأنها لا تكون إلا من خبيثاء محقوتين ، فإن المرأة الخبيثة داخله في هذا الوصف دخولا أولياً ، وأولويّاً .

وهذا تشنيع على أهل الخبث بالزنى أو بغيره من خصال السوء ، وقبيح الأخلاق .. والمسالك المعوجة ، والأصول الوضيعة التي لم يرفع من شأنها دين ولا تهذيب .. فالمرأة الخبيثة لا ينبغي أن تتعلق بها الرغبة في الزواج لمن كان ذا

تكريم لنفسه وواعياً لحرقه ونسله وإنما تكون مرغوبة لدى الخبيثين مثلها من الرجال .. وهذا توجيه للرجل أولاً : لأنه عادة يندفع بهواه إلى المرأة فاحتاج إلى توعية من غواية نفسه .

وكذلك كان التوجيه للمرأة (والخبيثون للخبيثات) ، يعنى أن الرجل الخبيث لا يرغب فيه إلا المرأة الخبيثة ، فلترهد فيه من كانت عزيزة على نفسها ، وكريمة في قومها .

وفي كلا التعبيرين حط من شأن الخبثاء ، عن مستوى الاختيار للزيجة ، فإن الزوجين أصول ، والذرية فروع لها ، والأسرة كلها كحقل واحد يراد تنقيته من الطفيليات والآفات ليكون كله نضراً يعجب زراعه ، وغير زراعه .

ومن أجل هذا كان من توعية الرسول - ﷺ - لأئمة فيما أثر عنه :
« تخيروا لنطفكم فإن العرق دسّاس » .

ويقول الشاعر :

وهل تنبت إلا في مغارسها النخل ؟

والفقهاء يراعون ذلك في اعتبارهم الكفاءة بين الزوجين ، حتى جعلها بعضهم شرطاً في صحة العقد .. والقرآن الكريم يقرن هذا التوجيه السلبي بتوجيه إيجابى ، فيقول تعالى : (والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات) .

فهذا ترغيب حيث في اختيار الطيبات من النساء للطيبين من الرجال ، وكذا في اختيار الطيبين من الرجال للطيبات من النساء .

فذلك كله تسوية للأوضاع ، وتوعية دينية واجتماعية في أمر خطير كثيراً ما تطيش به الرغبات ، ويجرفنا تيار الشهوة في جمال ، أو في مظهر لا يكون في حصانة من خلق ، ودين ، وتكون الحياة بعد ذلك في أن سخط وضرر الزوجية يكون أكثر من نفعها ، ولعل ذلك التسامح وراء المطامع والتزوات هو السبب

غالبًا فيما يشاع بيننا من تبرم بالحياة المترلية ، ومن سخطة نفسية تنقد جمراتها بين جوانح الزوج أو الزوجة ، فتتصدع أواصر الزيجة والنسب ، وربما تبدلت راحة الحياة بذرية لم تكدها بنصيب من رفاهية الطفولة في أحضان الأبوين فيستطير الشر ، وتتأثر العداوة ، ولا يسهل تدارك ما فات ، بعد أن تتمكن الشيطان من وضع يده ، ونفث سمومه .

كل ذلك : قصص توجيبي نحو ما ينبغي في تأليف الأسرة ، والتحري في تكوينها .. أكثر مما تتحرى في شئون لا يبلغ خطرها مبلغ ما تحدث عنه القرآن في مثل هذه العناية بالأسرة .

ولقد امتدت بنا الآية إلى ذكر الطيبين من عتره النبي ، ومن كانوا يعيشون في ظلال النبوة ، فيقول تعالى في الإشادة بهم ، وإنيهم الطيبون الذين تترهت سيرتهم عن سوائب الرية .

وينفي عنهم ما كان يرجف به المرجفون من الكفار والمنافقين (أولئك مبرهون بما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم) .

هؤلاء من أصول كريمة ولم يتسرب إليهم سوء الاختيار الزوجي ، فلا تلحق بهم شبهة التشنيع الذي المحذر إليه أولئك السفهاء .. بل هؤلاء لهم عند ربهم مقام الرضا ، ولهم الرزق الكريم في جنات الله الواسعة .

وذلك تنويه بشأن عائشة - رضى الله عنها - وعن أبيها الصديق . ويقول العلماء تعليقًا على ذلك إن يوسف عليه السلام لما رمى بالفاحشة كذبًا عليه ، برأه الله على لسان صبي في المهدي .

وإن مريم لما رماها اليهود بالفاحشة برأها الله على لسان ابنها عيسى صلوات الله عليه .

وإن عائشة لما تطاول المنافقون بالكذب عليها برأها الله تعالى بالقرآن ، فما

رضى لها ببراءة صبي ، ولا نبى ، حتى يرأها بكلامه - سبحانه - تلك البراءة التي تكفل الله بها في آيات عدة من سورة النور ، وبين فيها أن ذلك الإرجاف لم يكن في حقيقته شرًا بعائشة بل هو خير في تقدير الله .
ومن هذا ندرك ما يكون لكرائم النساء من طهارة العرض ، والبعد عن الشبهات والبراءة من أراجيف الخبثاء .
ولنا أن نفهم في صواب أن القرآن يفيض علينا بتعاليمه ، فيقص آياته ، ويضرب لنا الأمثال من واقع الحياة ، لنقتدى ولتزداد إيماننا .

الأسرة في التشريع الإسلامى^(٨)

عنى التشريع الإسلامى بالأسرة أتم العناية وأكملها . فوضع لها من أحكام الحقوق والواجبات والآداب ما يكفل لها إرساء الدعائم . وسلامة البنين والحياة الطيبة المباركة ، ويهيئ منها عضواً سليماً صالحاً لأن يؤدي وظيفته أداء كاملاً للمجتمع الإنساني الذي نعيش فيه .

وأحكام الأسرة تعالج أموراً سداها ولحمتها الإحساس والعاطفة ، وتقوم أكثر ما تقوم على المشاعر والروابط النفسية . وهى فى الأغلب من الأمور الدقيقة الخفية . وكثير من هذه الأحكام لا ينفع الجهر فى حمل الناس على امتثاله ، ولا يكفل له السلطان والسيادة سوى الإيمان والعقيدة وتهذيب الأخلاق وتقوية الوازع الدينى ومحاربة الآراء الهزيلة والترعات الآثمة . ودعوة الناس إلى اتباع دينهم الحق، وإرشادهم إلى سواء السبيل.. وقد تحدثنا فيما سبق عن أن الزواج حجر الأساس. والدعمامة الكبرى التي تقوم عليها بناء الأسرة. وقد

(٨) فضيلة الشيخ محمد أحمد فرج السنهورى .

أمر به الله سبحانه وتعالى في مواطن كثيرة من الكتاب الكريم . وأشار فيه بالقول الجامع الحكيم إلى مقاصده . وشجع الهيايين على الإقدام عليه .. ونهى عن وضع العقبات في طريقه . وامتق به على رسله وسائر عبادته .

ورسول الله ﷺ - وما ينطق عن الهوى - قد أكثر من الأمر به وبالغ في الحث عليه . وأكد أن عون من يتبغيه حق على الله ، وفاخر بأنه سسته وأعلن براءته ممن يرغب عنها . أو يتركها خوفاً من الفقر والعيلة .

وقد اختلف الأئمة والفقهاء في شأن هذه الأوامر ، فذهب فريق منهم إلى أن الزواج سنة محكمة . وفريضة واجبة على كل من يستطيعه وإن لم ينجس زلة ولا فتنة . وذهب الباقيون إلى غير ذلك من الآراء والتفصيلات . وأياً ما كان أمر هذه الأقوال فإنهم قد أجمعوا على أن الزواج رغبة من أفضل الرغائب وهدى إلهي نبوي يجب الحرص على إحيائه .

والتشريع الإسلامي لم يأمر بالزواج ، ولم يبالغ في الحث عليه إلا لأنه السبيل الوحيد إلى الحياة الهانئة السعيدة ، فهو وحده الذي يكفل للرجل والمرأة على السواء حياة يسودها سكن النفوس ، واطمئنان القلوب وتتوافر فيها الثقة المتبادلة . وهو وحده الذي يكفل لها المودة الخالصة والمحبة الصادقة . وهما أأسس الروابط المتينة وهو وحده الذي يكفل لها التراحم والتعاون في السراء والضراء . ومتى قامت الحياة على هذه المشاعر كانت كلها خيراً وبركة لأهلها ولأقوامها .. ثم هو وسيلة لحفظ النوع وخلق جيل صالح ينشأ في كنف الفضيلة، وحنان الأمومة ورعاية الأبوة هذا إلى ما فيه من تعويد رب الأسرة على الاضطلاع بأعباء الرعاية وتحمل المسئولية ومشقاتها في جراحة وإقدام . وهذه كلها فضائل ولذائد روحية لا يحفل حصيف في جانبها بأى ألم مهما كانت قسوته . وهذه التعاليم الإسلامية قد سرت في نفوس المسلمين منذ العصور الأولى

فرعوها حق رعايتها وأطاعوها في السر والعلن عن إيمان خالص . وعقيدة صادقة لا فرق في هذا بين باد وحاضر . وقد بقي أهل القرى على العهد بهم فلا سلطان على نفوسهم إلا للوازع الديني وما يحيط بكل منهم من الاعتبارات والظروف ، بل أسرف بعضهم في الإقدام على الزواج . فزوجوا الأطفال ومن هم على شاكلتهم ممن لم تؤهلهم أجسامهم وأعمالهم وخبرتهم للحياة الزوجية . حتى اضطر الشارع المصري إلى التدخل وتحديد سن الزواج . ومع هذا لاتزال طائفة منهم تعمل على الإفلات من أحكامه .

أما أهل المدائن فقد وفدت عليهم من الأقطار الأخرى أفكار مادية بحتة ونزعات خبيثة ، فملت فعلتها في نفوس فريق منهم فأنستهم تعاليم دينهم وأنستهم اللذات الروحية وجالها وجلالها ، وأنستهم كل شيء إلا المادة وما يدور حولها ، وقد برز من بين هذا الفريق طائفتان .

أما إحداهما فإنها تدعو إلى العزوبة المطلقة . وتنشئ الأندية باسمها وهي لا تدعو إليها باسم التبتل والعبادة . بل من أجل المرح والتخلي عن التبعات ، وتقول مالى وما للزواج والتوالد ؟ ولم أنحمل عناء الزوجات وهموم الأولاد ؟ ولم لا أمتع وحدى بجهودي وثمرات أعمالي ؟ إلى غير ذلك من الأقاويل التى لا تصدر إلا عن إباحي لا يأبه بالدين . ولا يبالي بخلق كريم .

وأما الأخرى فهي طائفة المعوقين . الذين يدعون إلى إرجاء الزواج حتى يتسع الرزق ويكثر المال بحيث يضمن عيشاً رغداً . وأهل هذه الطائفة قد ألبسوا دعوتهم ثوب الإصلاح الاجتماعى والاقتصادى . وأفاضوا فى الإشفاق على العالم وموارده . وظهر من بينهم من يدعو إلى وضع العقبات من طريق التشريع . بل لوح بعضهم بالعودة إلى فتح بيوت البغاء الرسمى .

وأهل هذه الطائفة ليسوا من دين الله فى شيء . فهم لا يثقون بوعد الله

(إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) . ولا يثقون بوعد رسوله « ثلاثة حق على الله عونهم . وعد منهم الناكح يريد العفاف » ويتحدونه جهرة في قوله : « من امتنع عن الزواج مخافة العيلة فليس منا » وهم يجمعون إلى ذلك الجبن والفرار من تحمل أعباء الرعاية . والقيام بالواجب الإنسانى . كما يجمعون إليه الدعوة إلى الرذيلة .

وإذا كانت دعوة أهل هاتين الطائفتين لم تبلغ المدى الذى يرجونه فلا ريب فى أن ما أحدثته من أثر . قد انضم إليه انحراف بعض الناس عن القصد الأسهى للزواج ، وعوامل أخرى ، فقد نساب عن كل هذا فى المدائن وما إليها حالة غير مرضية ، أطلق عليها بعض الباحثين اسم « أزمة الزواج » ، ودعا إلى علاجها من طريق التشريع أو طريق العقوبات أو فرض ضرائب على المعرضين على الزواج وحرمانهم من بعض المزايا .

وعندى أنه لا توجد حتى الآن أزمة زواج بالمعنى الصحيح . وما يوجد حتى الآن لا يعدو أن يكون حالة ركود بين طائفة معينة . أما الأزمة الحقيقية التى يجب الإسراع فى انتقاء شورها فهى النزعات الخبيثة . والدعوة إلى الإعراض عن الزواج .

ونصيحى إلى هؤلاء.. أن يتدبروا الأمر ، ليتبينوا أن أى تشريع يتدخل فى هذه الشئون الحساسة الدقيقة لا يغنى شيئاً ، وأنه مهما بالغ واضعه فى إحكامه سيكون تشريعاً ظالماً ، إثمه أكبر من نفعه.. إذ الناس فى هذا الأمر جد مختلفين ، لكل ظروفه وعاداته وضروراته .

وعلى من يريد الإصلاح حقاً أن يعمد إلى النفوس فيهدبها ويغرس فيها الفضيلة . وإلى الوازع الدينى فيوقظه من غفوته . ويعمل على تقويته . ثم يترك الناس لشئونهم يصدرون فيها عما تمليه عليهم صوابهم ودينهم . هذا هو طريق

الإصلاح الصحيح الذى تجرى به الأمور مجراها المستقيم وتموت معه النزعات الخبيثة.

والأسر هي المجتمعات الصغيرة والخلايا التى يتكون منها بناء المجتمع الكبير يسعد بسعادتها ، ويشقى بشقاؤها . ويصح بصحتها ، ويمرض بأمراضها وقد قام التشريع الإسلامى على هذه المعانى فى صورة واضحة مكتملة قل إن اكتملت فى غيره . وكان سبأً إلى تحقيقها من جميع جوانبها فغنى بها أتم العناية وأكملها . ووضع من الأحكام والآداب ما يكفل لها الدعائم الرأسية المكيّنة . والبناء القوى المتين . وسلك سبيلاً قويمًا يجعلها أعضاء سليمة مكتملة للمجتمع الإنسانى . تؤدى وظائفها الأداء الكافى الوافى .

وقد امتلأت آيات الكتاب الكريم والسنة النبوية بالدعوة إلى بناء الأسر وإرساء قواعدها على أن يقوم بناؤها على أساس سليم من المقاصد التى يبتغيا وهى مقاصد سليمة ترمى إلى سعادة الإنسانية وسعيها إلى الرقى والكمال . وهى الإحصان والعفاف . وسد الذرائع . ومقاومة الفساد . والقضاء على فوضى الاختلاط . وتهئية حياة هائلة سعيدة لأفرادها تسودها الثقة والاطمئنان والتعاون وتحمل الأعباء فى مودة وتراحم . وخلق جيل صالح يشب فى جو من مكارم الأخلاق . وابتعد بها عن المتعة المجردة الجسدية . وعن الحياة المادية المردولة . وتوعد من انحرف عن هذا السبيل القويمة بانتكاس الرجاء وخيبة الأمل . فهذا رسول الله ﷺ يقول « تزوجوهن على الدين ، ولأمة حرساء سوداء ذات دين أفضل » ، ويقول عليه الصلاة والسلام : من تزوج امرأة لعزها لم يزد الله إلا ذلاً . ومن تزوجها لما لها لم يزد الله إلا فقرًا . ومن تزوجها لحسبها لم يزد الله إلا دناءة . ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن يغض بصره ويحصن

فرجه . أو يصل رحمه بارك الله له فيها وبارك لها فيه » ويقول : « تزوجوا الودود الولود فإنى مكائر بكم الأمم » .

وقد أرشد الله جلت حكمته إلى الحياة الروحية التى يجب أن تسود الأسرة بقوله : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

ولما كان تحقق هذه المقاصد السامية واستقامة أمور الأسرة وقيامها بواجبها الاجتماعى لا يمكن أن تسير فى طريقها القويم إلا إذا تساوت دعائمها : الرجل والمرأة وتمكن كل منهما من القيام بواجبه . وأحسن بالعزة والكرامة وأمن جور الآخر وبطشه . حاء التشريع الإسلامى فاستحيا المرأة مادياً وأدبياً واجتماعياً . ورفع شأنها ، وأعز مكانتها . وكفل لها أهلية كاملة كأهلية الرجل ، وفرض لها من الحقوق المالية ما يتلاءم مع تبعاتها . وقامت حقوقها فيه على أصل ثابت هو المساواة . بإعطاء كل منها ما يلائمه وبحسن القيام به . ومكن لها فى الأعمال الاجتماعية على شريطة ألا يخل ذلك بواجبها فى الأسرة وتبعاتها كزوجة وأم .

وقد أوجب التشريع الإسلامى أن تسود الأسرة التربية الدينية التى تغرس فى النفوس العقائد السليمة الراسخة . وتربها فى جو من الإيمان الصحيح . يحملها على التزام طاعة الله وامتنال أوامره واجتناب نواهيه . ويحليها بمكارم الأخلاق لا رياء وسمعة ولكن ابتغاء رضوان الله . ويدعوها إلى مراقبة الله وحده وخشيته فى السر والعلن . ويهذب النفوس ويكبح جماحها . وينشر بين الناس احترام الحقوق وحب الخير . لا عن خوف ورهبة ولكن عن طاعة ورغبة . والتربية الدينية مصدر الخير والبركة . وسبيل السعادة فى الدنيا والآخرة . وإذا فسدت هذه التربية وأهمل شأنها ضعف الوازع الدينى أو مات فالعفاء على سعادة الناس واستقامة أمورهم .

وقد بلغ التشريع الإسلامى الغاية فى الدعوة أن تسود مكارم الأخلاق أعضاء الأسرة كواجب دينى لا يحل التهاون فى أدائه ولا فى إقامته . فقد روت أم المؤمنين عائشة ومعاذ وأبو هريرة رضى الله عنهم : أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال : « لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها . ولا تجد امرأة حلاوة الإيمان حتى تؤدى حق زوجها » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « إذا صلت المرأة خمسها ، وحصنت فرجها وأطاعت בעلها ، دخلت من أى أبواب الجنة شئت » .

وقد ألزمها الله سبحانه أن تتأدب بآداب الدين وأن تتحلّى بالحشمة والوقار فى نظراتها وفى لباسها وزينتها فقال عز من قائل (قل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن) - الآية - وقال عليه الصلاة والسلام : أمر الله جلّت حكمته أن يعاشر الرجال نساءهم بالمعروف . وقال ﷺ : « الله الله فى النساء » قال « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا . وأطفهم بأهلهم » وقال : خيركم خيركم لنسائه وأنا خيركم لنسالى » وقال : « إن من الغيرة ما يحبه الله ومنها ما يبغضه الله ومن الخيلاء ما يحبه الله فأما الغيرة التى يحبها الله . فالغيرة فى الريبة . والغيرة التى يبغضها الله فالغيرة فى غير ريبة » . وقال عز من قائل :

(وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . وانخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا) . إلى غير ذلك من الآداب ومكارم الأخلاق التى تكفل للأسرة حياة صالحة وسعادة سابعة .

طموح الأنبياء إلى البنين^(٩)

(هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع
الدعاء) .

ينساق إلى بعض الأذهان أن الرغبة فى الذرية ظاهرة لحبّ الدنيا ، ويعيرون
على أى إنسان أن يبغى الولد ليكون ذكرى والديه وعتاد أهله ويرون الحنين إلى
الخلف محاولة للبقاء فى تلك الحياة ، فإن لم يكن بالذات فليكن بالخلف . وكل
ذلك عند هؤلاء المترهدين مشغلة عن الآخرة ، وتشبث بأعراض الحياة ، وهذا
هو أو أشبه باللهو ، واللهو كله ليس شيئاً فى حساب الأتقياء - هذا ما لديهم من
تعللات ..

وهناك آخرون من عشاق التقاليد ، يتحاشون إنجاب الأولاد خشية أن
تثقلهم التكاليف ، وتزدحم بهم منع الحياة الزوجية ، فهم لذلك يجمعون عن
الزواج ، أو يستخدمون الوسائل المحظورة فى التخلص من إنجابهم .
ويفوت أولئك المترهدين أن حب الولد فطرة فى الإنسان ، وفى كل نفس
حية ، وأنها نزعة طبيعية امتزجت باللحم والدم وهى ما يسمونه « غريزة بقاء
النوع » أو نحو ذلك مما اقتضته السنة الكونية . وفاتهم كذلك أن الدين الحق لا
ينازع الفطرة ، وأن الفطرة السليمة لا تنأى عن الدين ، ولا تشاقه ، وكيف
يكون بين الدين والفطرة السليمة عناد ، وكلاهما من صنع الله الذى أنقذ كل
شئ ؟

وكذلك صح عند الذين يقاومون الفطرة ويتأثرون بالتقاليد، أن هذا الاتجاه

(٩) فحات القرآن : الشيخ عبد اللطيف السبكي . (سبق الإشارة إليه) .

لا يستقيم، ولا تستقيم عليه النظم الكونية بل لا تستقيم عليه الحياة الشخصية، فإن الإقلال من إنجاب الأولاد مدعاة لانكماش الدولة ، وانتقاص الجماعة ، ومن دواعي النهوض في الدولة أن تعمل على الكثرة ، وبجانب ذلك اعتبار آخر هو أن المرء يتبلى في ولده فيصبح بعد ذلك محروماً يقاسى لوعة الحرمان أو على الأقل يعيش غير مستأنس بأبنائه بحكم الفطرة أعوان في الحياة.

وإذا كان حب الولد فطرة فليس أطوع للفطرة من صاحب دين خالص ، فما بالك بالأنبياء وهم صفوة الناس طباعاً وأرجحهم مدارك وأكملهم إنسانية ؟

أراد ربك أن يرسم لنا في المنهج الديني طوعية المرء للفطرة في حب الولد ، واتخاذ السبيل إليه ، فساق إلينا حديث الأخيار من عباده لنتلمس فيهم القدوة ونتلقى عنهم الوسيلة ، وفي ذلك ما يدفع الشبهة الكاذبة التي تخالج المتزهدين ، أو تجرى في أفواه الأديعاء ، وفيه أيضاً إيقاظ لعاطفة الأبوة الكامنة في النفس والتي يحاولون كبتها أو الضغط عليها بالجَنوح إلى التقاليد المصطنعة .

وهذا زكريا نبي الله عليه السلام ، بلغ من العمر ما بلغ ، وفات زوجته أوان الحمل ، وأصبحت عاقراً لا تطمع في المخاض .

ولكن الأمل والحنين ، وتحكم الفطرة ، ودافع الغريزة .. كلها لا تدع زكريا يستسلم لليأس من الولد أو الزهادة فيه ، كما أن دينه الحق لا يمنعه أن يدعو إلى الله ، ويطلق باب الرجاء في فضل مولاه بالدعوات الصالحات أن يرزقه الذرية ، وهو إذ يلج في دعواته بالذرية مطاوفاً لفطرته ومستأنساً بتوجيه دينه ، إنما هو جانح إلى البشرية في خصائصها البارزة ، وغير لاثن إلى مزاعم المتجردين ، من أن التبتل المتعمد من كمال التدين ومن شعار الأصفياء ، نعم ليس كذلك - فزكريا حينما وجد مريم تعيش في كنفه ، وتكلؤها رعاية الله ،

فيأتيها الرزق من حيث لا يدرى هو ، ومن أصناف لا يعهدا في وقتها ، ولا في جودتها ونضجها ، يحيش الأمل في نفسه ، وتثور عنده الرغبة في الذرية - فيضرع إلى الله منادياً (رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء) . وماله لا يدعو وقد سمع من قبل ما دعت به أم مريم ثم رأى بعينه كيف استجاب الله لها في مريم وكيف يمرى كرم الله على مريم .

وإذن ، لا يبعد على الله أن يستجيب له ، وأن يرزقه ، وأن يكون ولده أحدوثه العجب والقدرة ، كما كانت مريم وابنتها أحدثه العجب والقدرة . والقرآن يحكي أن زكريا دعا ربه في صبيغ عدة ، فمرة يقول : (رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين) .

وأخرى يقول : (رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء) . وثالثة يقول : (رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيئاً ولم أكن بدعائك رب شقيئاً . وإني خفت المولى من ورائي وكانت امرأتى عاقراً فهب لي من لدنك ولياً . يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً) .

وهل كانت تلك الدعوات أو ما هو أكثر منها وفي معناها متعاقبة في وقت

واحد ؟

فهم بعض المفسرين هذا من قوله تعالى : (هنالك دعا زكريا ربه) وقوله بعد ذلك : (فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب) فإن نداء الملائكة له بالبشرى وقع وهو في مقامه من محراب مريم ، وجاء مقروناً بالفاء الدالة على القرب ، ثم اقترن بواو الحال في قوله : (وهو قائم يصلي في المحراب) . فكانه لم تمض مدة بين الدعاء والإجابة من الملائكة . وآخرون من المفسرين يرون بعد الإجابة عن الدعاء بأزمة طويلة لذلك كرر دعواته ولم تكن في وقت واحد ، وأما التعبير بالفاء في قوله : (فنادته الملائكة) فلا يقصد منه

اقتران التلبية بالدعاء ، وإنما قصد منه الدلالة على القرب في الوقوع حتى كأنه
اقتن بالدعاء .

وكيفها كانت التلبية ، فقد تكررت روايتها في القرآن ، ففي سورة آل عمران
(أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيداً وحسوراً ونبياً من
الصالحين) وفي سورة مريم (يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من
قبل سمياً) فالبشرى آذنت زكريا بأوصاف ربما كانت أكثر مما يرجو ، فإنه طلب
ذرية طيبة ، وفسر الذرية بأن تكون ولياً يرثه ، ويرث من آل يعقوب ، وليس
له من ميراث سوى البركة ، والدين ، والخلق ، وأن يكون خلفاً طيباً لسلف
طيب ، يقوم بالهداية ، والإصلاح ، حتى لا يكون الأمر فوضى بين الأقربين
لزكريا من أشرار بنى إسرائيل يتكالبون عليه ، ويتنازعونه بعد وفاته هو .
وهذه البشرى قوى الأمل في نفس زكريا ، وألحت عليه التزعة البشرية في
التعجب ، كيف يكون له ولد عرفه الآن باسمه يحيى ، وعرفه بصفاته ، بأنه لم
يسبق إلى هذا الاسم ، وبأنه مصدق بكلمة من الله ، يعنى مؤمناً بنبي آخر يكون
كلمة من الله ، وهذا تبشير بعيسى - ولم يكن عيسى ولداً - وعرفه بأنه سيكون
سيداً في قومه ، وحسوراً عن النساء - وكانت هذه محمودة في زمنه لأشخاص
معينين - وعرفه فوق ذلك كله بأنه سيكون نبياً من الصالحين للدين والدنيا ،
وفي نفسه وفي قومه .

كيف يكون له ذلك الولد ، وهو لا يعهد في مثل زوجته أن تلد ، وهل
سيكون الولد منها ، أو من زوجة سواها ، ولم يعد في عمره متسع للاقتران
بأخرى بعد ؟

ولكن الله سبحانه يزيده طمأنينة ، ويؤكد له البشرى بما يعجب من
حصوله ، فتناديه الملائكة ثانياً : (قال كذلك قال ربك هو على هين) الأمر

كما سمعت ، لا شبهة في حصوله ولا استبعاد ، ثم ينيه إلى سهولة ما عظم عنده
بما جرى في نفسه (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) .
ولكن هذه البشائر وهذا التدليل لم تقف بذكرها عندما فيها من التفاؤل
الأكيد ، بل زادته شغفاً بقرب الحصول ، فسأل الله آية على ذلك .
وفي كثير من هذه المراحل معان إنسانية ، فيها وجوه من الشبه بين الأنبياء
وبين غيرهم من الناس .

* * *

البَابُ الرَّابِعُ

بدنك أكثر الآلات كمالاً وأحقها بالمعرفة

(لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم)

(التين)

عجائب جسم الإنسان^(١)

أولاً : العظام :

- يتكون جسم الإنسان من العظام والعضلات والأعضاء الرئيسية الحيوية وكلها أعضاء فى فريق يعمل متعاونًا .

- فى جسم الإنسان ٢٠٦ (مائتان وست عظام) .

- فى الرأس وحدها اثنتان وعشرون من العظام مقسمة إلى مجموعتين (عظام الجمجمة وعظام الوجه) فعظام الجمجمة ثمانية وعظام الوجه أربع عشرة دون حساب الأسنان والأضراس والأنياب والقواطع طبعًا .

- ترتكز الجمجمة على عمود مكون من أربع وعشرين فقرة يسمى بالعمود الفقرى ، منها سبع فقرات علوية تسمى بالفقرات العنقية ، وهى أكثر الفقرات كلها مرونة حيث تسمح للرأس بأن يتحرك فى جميع الاتجاهات .

- تبرز الأضلاع من الاثنتى عشرة فقرة التى تلى الفقرات العنقية وتسمى بالفقرات الظهرية .

- الفقرات الخمس الأخيرة تسمى بالفقرات القطنية وهى تسمح للجسم بأن يثنى إلى الأمام وإلى الخلف .

- والعجز الذى تحت الفقرة الأخيرة ثابت لا يتحرك وهو يقع بين عظمى الحوض اللذين يرتكز عليهما كل الجزء العلوى من الجسم .

(١) عن كتاب بهذا العنوان تأليف أنتونى رافيللى ترجمة وتصدير الدكتور على عبد الفتاح - دار

القلم ١٩٦٢ - بتصرف -

- عظام الفخذ هي أكثر عظام الجسم قوة وأثقلها وزناً وهي تشبه العصا ذات العنق إلى حد كبير وقد خلقها الله سبحانه وتعالى مهيئة لتسمح للطرف السفلى بأن يتحرك في جميع الاتجاهات ليستطيع الإنسان بذلك أن يجرى ويقفز ويرفس ويرقص .

- بين الركبة والكعب يوجد عظم الساق (القصبة والشفية) والأول قوى والثاني ضعيف وبالرغم من تساوى طوليهما فإن عظم القصبة وحده هو الذى يشترك فى تكوين مفصل الركبة وعند الطرف السفلى يتدلى العظمان (القصبة والشفية) ليكونا مفصل الكعب .

- المفصل الذى نطلق عليه اسم (الركبة) يساعد الساق على الحركة بسهولة ويسمح لها بأن تنثنى فى اتجاه واحد فقط ، ويصير محكماً عندما تكون الساق ممتدة ، وأمام المفصل يوجد غطاء الركبة ويسمى (عظم الرذفة) لحماية الركبة وهي قطعة سائبة من العظم تتصل بالقصبة برباط عبارة عن شريط من نسيج متين جداً وبرغم مرونته فهو ليس مطاطاً وذلك يسمح للعظم المتصل به أن يتحرك بسهولة دون أن ينخلع .

- وعظام القدم الست والعشرون رصت على هيئة نصف دائرة مكونة بذلك قوساً متكاملة وهي تتحرك إلى أعلى وإلى أسفل كالأرجوحة ، وتساعد حركة القدم أصابع مرنة يمكنها أن تتحرك وأن تلتوى وأن تمسك ، وقد تقوست القدم حتى تكون أداة للارتكاز وتفصل عند الكعب حتى تستطيع الحركة .
- وللإنسان ترقوة واحدة على كل جانب . وعظم الترقوة هي حلقة الاتصال بين الجسم والذراع من الأمام ، أما فى الجزء العلوى من ظهر القفص الصدرى فتوجد عظمتا لوح الكتفين ، ولوح الكتف عبارة عن عظم منبسط مثلث ومنه يتدلى عظم العضد ، وهو أكبر عظم فى الجزء العلوى من الجسم ،

وهو مهياً بحيث يمكن الإنسان من أن تلوى ذراعه أو تثنيها أو تلفها .
- ويتكون الساعد كما في الساق من عظمين يجريان جنباً إلى جنب وأكبرهما عظم الزند ، ويمتد من المرفق (الكوع) حتى رسغ اليد (المعصم) في ناحية الأصبع الصغيرة (الخنصر) - وأصغرهما عظم الكعبرة الذى يكون مع عظم الزند مفصل رسغ اليد والكوع .
- أما (الكوع) فيتكون من البكرة التى فى قاعدة عظم العضد وهى كمفصل الركبة .

- وعظام المعصم الثمانية وعظام الكف والأصابع التسعة عشر تجعل من اليد أكثر أداة مفيدة فى العالم . وتتصل اليد بالمعصم بوساطة مفصل ولذا يمكنها الحركة إلى أعلى وإلى أسفل وأن تلف وأن تنقلب والإبهام تستطيع أن تلمس أى أصبع من الأصابع الأربع الأخرى .
ولكل أصبع ثلاثة مفاصل عدا الإبهام فلها مفصلان .

ثانياً : العضلات :

- العضلات هى التى تكسب الجسم صورته الخاصة وهى تكسو كل عظام الجسم ويزيد عددها على خمسمائة عضلة ، وأينما يوجد عظم توجد العضلات التى تحركه ، وتتكون العضلات من عدة حزم من الألياف الوترية شد بعضها إلى بعض فى شكل رزم ، وهناك أوتار تحكم ربط العضلات بالعظم أو بالجلد أو بأى نسيج آخر ، ومثل العظام التى فى الهيكل نجد لكل عضلة عملها - ولكل عضلة فى الجسم عضلة تضادها فى نفس المنطقة، فكل عضلة تننى مفصل تواجه العضلة التى تعمل على استقامته، وهذا التناسق فى العمل يحدث فى جميع أجزاء الجسم، فليس هناك عضلة واحدة تتدخل مع عمل عضلة أخرى.

- العضلة حتى في حالة سكونها فإنها لا ترتخي تمامًا بل تجدها دائماً بقظة متوترة وبدون هذا التوتر يتدلى الفك وتهلج الجفون ويتوقف التنفس .
- والعضلات ذات أشكال وأحجام عديدة حسب المهام المنوطة بها وموقعها في الجسم .

- هناك عضلات قوية تمسك الفك السفلي بعظام الرأس الثابتة وهي العضلة الصدغية والعضلة المضغية التي ترفع الفك السفلي المتحرك ، وهناك عضلات أضعف منها تخفضه .

- وعضلات التعبير صغيرة ورقيقة ومنتشرة في جميع أجزاء الوجه وهي تظهر بوضوح فقط عند تغير ملامح وجوها أو تقطب الجبين .

- لا يمكن للحيوانات الدنيا التعبير عن عواطفها لأنها ليس لديها إلا عضلات قليلة في وجوها .

- وعضلات الرقبة والوجه تمثل $\frac{1}{3}$ عضلات الجسم .

- من أهم العضلات التي تحرك الرأس العضلتان القصيتان الحلميتان من خلف الأذن عند قاعدة الجمجمة منحدرتان إلى أسفل على جانبي الرقبة حتى تلتقيا عند جذر الرقبة ، وبواسطتهما مع عضلات أخرى مساعدة يمكنك أن تدير وتثنى وتخفف وترفع الرقبة .

- وعضلة الكف هي التي ترفع الذراع وتدفعها إلى الأمام وإلى الخلف ، وعضلة الصدر تخفف الذراع ، فكل عضلة تقوم بعمل واحد فقط ، ثم لا بد من عضلة مختلفة لتقوم بعكس هذا العمل .

- وعضلات الأضلاع تعمل بصفة مستمرة كآلتين لرفع وتخفف القفص الصدري حتى تستطيع أن تنفس فالعضلات بين الأضلاع الظاهرة ترفع والعضلات بين الأضلاع الباطنة تخفف .

- والجذع هو ذلك الجزء الواقع بين الكتفين والأرداف وعضلاته تغطيها كما تغطي القشرة الشجرة وتحميا وفي الجذع تقع جذور العضلات التي تحرك الرأس والذراعين والساقين والجذع نفسه . وأكبر عضلات الجسم توجد في الظهر لتجعل العمود الفقري مستقيماً .

- وفي الجزء الأمامي من جذعك يوجد جدار عضلي يقوم بحماية أعضاء الجهاز الهضمي وعملية انتثاثك إلى الأمام وإلى الخلف قد اختصت بها العضلات الأمامية من جسمك .

- وفي الساقين والذراعين عضلات طويلة رفيعة مخصصة فقط بالحركة ، وهي تتصل بعظام صممت لتحرك بطرق عديدة .

- الغضاريف مادة مرنة ذات سطح يعمل كوسادة لتقليل احتكاك العظام .. وكل مفصل متحرك قد حفظ داخل تجويف محكم مكون من الغشاء الزلالي وهو طبقة من نسيج مبطن بطبقة أخرى أكثر نعومة .

- الغشاء الزلالي يفرز سائلاً كثيفاً يعمل على تشحيم المفاصل المبطنة بالغضروف والتجويف المفصلي المحكم يمنع هذا (الزيت) من الهروب فتبقى المفاصل دائماً (مشحمة) فيتحرك الجسم بليونة دون أن يحدث صريراً أو يبل .
- مع كل خطوة تخطوها يتحرك ما يقرب من ثلاثمائة عضلة .

ثالثاً : المخ والجهاز العصبي المركزي :

- يتكون الجهاز العصبي المركزي من المخ والنخاع الشوكي والأعصاب التي تمتد منه ، ويمكن مقارنته بمحطة اتصال كهربية ، فالمخ هو لوحة المحولات يستقبل الرسائل ويحجب عليها بصفة مستمرة ، والنخاع الشوكي هو الحبل الرئيسي الذي تمر خلاله الرسائل الواردة والصادرة ، والأعصاب هي

الأسلاك التى تخرج من الحبل الرئيسى إلى الأركان البعيدة فى الجسم غير تاركة أى جزء فيه دون جهاز إشارات .

- الرسائل الواردة تخرج عبر شبكة من الأعصاب الحسية وترسل الإجابات عن طريق شبكة أخرى مرافقة مكونة من الأعصاب المحركة .

- جميع الأنسجة الحية تتكون من أجزاء ميكروسكوبية دقيقة هى الخلايا والخلايا التى تكون الجهاز العصبى تسمى بالوحدات العصبية .

- ينقسم المخ إلى أقسام ثلاثة : النخاع المستطيل والمخيخ والمخ المسمى .
والمخ هو الذى يمين على أجزاء الجسم لتصبح وحدة متكاملة . والنخاع المستطيل هو ذلك الجزء المتضخم من النخاع الشوكى الذى يتكون بمجرد دخوله الجمجمة عند قاعدة المخ ، وهو أكثر أجزاء المخ عملا وفوقه وخلفه يوجد المخيخ ، ويبلغ حجم كرة اليد الصغيرة ، وهو يمكنك من السير والرقص والرياضة أو أن تقوم بأى شىء يحتاج إلى تناسق وتوازن .

- والمخ المسمى عبارة عن فصين بهما تلافيف تميزه عن مخ الحيوانات الدنيا ، وقد تركزت فى المخ القدرة على أن تفكر وتتذكر وترى وتتكلم وتكتب وتتخذ القرارات . والمخ يبقى على اتصال بالعالم حوله بوساطة مساعديه (الحواس) .

- فالعين هى آلة التصوير التى تدله على شكل الأشياء وأين يجدها .
- والأنف ترسل للمخ الرائحة التى تدله على طبيعة الشىء .
- واللسان يدلّه بالذوق على طعم الأشياء .
- وخلال قناة الأذن تتحول الذبذبات إلى أصوات عندما تصل المخ .
- والجلد يبلغ المخ عن طبيعة ما يلمسه حارًا كان أو باردًا وكذا أى ألم أو ضغط ، وحاسة اللمس أو الشعور متشرة على سطح الجسم .

- والمخ يسجل فى ملفاته الضخمة صورة لكل عمل ، فإذا أردت النهوض من مكانك مثلا فإن المخ يحصل على الصورة فى جزء من الثانية ويتذكر بالضبط كيفية القيام بهذه العملية ويرسل أوامره للأعصاب الخاصة بهذا العمل دون سواها لتجد نفسك فى النهاية واقفاً بالرغم من أن المخ قد يكون قائماً بعمل عشرات الأشياء الأخرى فى الوقت ذاته وهذه الحركة هى ما نسميه بالحركة الإرادية .

- وبعض الرسائل التى ترسلها أعصاب الحس إلى المخ تعنون (مستعجل) وهذه هى رسائل الألم فعندما تؤخذ سن دبوس مثلاً فى أصبعك ، فإن العصب الذى يحمل رسالة الألم إلى المخ لا يتنظر حتى يرى ما إذا كان المخ مشغولاً بعمل آخر ، بل تقوم الأعصاب المحركة على الفور فتخطف عضلات اليد أو الأصبع بعيداً عن الدبوس .. وهذه الحركة تسمى بالحركة الانعكاسية .

- والجهاز الانعكاسى فى المخ والنخاع الشوكى دائماً على أهبة الاستعداد حتى لو كنت نائماً فإنه دائماً يحميك ويحذرك .

رابعاً : القلب ومجرى الدم :

- القلب هو المضخة التى تدفع السائل الدافئ الذى يسمى بالدم خلال جميع أجزاء جسمك .

- يتكون الدم من ملايين وملايين الخلايا أو الكرات الدقيقة المستديرة الحمراء والبيضاء عائمة فى البلازما .

- الكرات الحمراء تحمل الأوكسجين من الرئتين إلى الأنسجة والخلايا فى جميع أنحاء الجسم ، ولكل خمسة آلاف كرة حمراء يوجد ثمانى كرات بيض .

- الكرات البيض هي الجنود الفدائية التي تهاجم وتحطم كل الأعداء الذين يجرءون على اقتحام مجرى الدم ، إنها حرب حتى الموت والكرات البيضاء التي تسقط في المعركة تتحول إلى مادة هي الصديد .

- يذهب الدم إلى الرئتين طلبًا لغاز هام جدًا للحياة هو الأوكسجين .
- ويذهب الدم إلى الأمعاء ليحصل على مواد حيوية أخرى يحتاج إليها الجسم .

- الأنابيب التي تحمل الدم هي الشرايين والأوردة والشعيرات .
- يذهب الدم من القلب إلى الرئتين عن طريق الشريان الرئوي .
- يرجع الدم المحمل بالأوكسجين إلى القلب عن طريق الشريان الرئيسي (الأورطي) على الجانب الأيسر للقلب .
- عندما يصل الدم إلى نهايات الشعيرات يكون قد جمع كمية كبيرة من الفضلات أهمها ثاني أكسيد الكربون .
- يعود الدم إلى القلب عن طريق الأوردة ثم يرجع في نفس الرحلة خلال الشرايين ، وكل رحلة من هذه تستغرق ثلاثاً وعشرين ثانية .

خامساً : الرئتان :

- منذ اللحظة التي تنفست فيها الهواء لأول مرة حتى الآن لم تخل رئتاك منه أبداً .
- الأضلاع وعضلاتها في تمددها وانقباضها تجعل الرئتين تعملان كالمنفاخ ، فعندما تتمدد الرئتان يكون بهما فراغ نسبي فيندفع الهواء إلى الداخل ليملاً الفراغ ويأخذ الدم الأوكسجين من الهواء ويترك الغاز الفاسد وعندما تقبض الأضلاع يدفع هذا الهواء الفاسد - غاز ثاني أكسيد الكربون - إلى الخارج .

- الأوكسجين يولد الحرارة التي لا يعمل الجسم بدونها ، وتبلغ حوالى ثمانية وتسعين درجة فهرنهايت .

سادساً : الجهاز الهضمى :

إن جسم الإنسان فى حالة مستمرة من بناء وإصلاح واستبدال للأشياء التى يحرقها أو يستعملها .

- ومهمة القناة الهضمية هى تحليل الغذاء واستخلاص المواد الكيماوية التى هى فى حاجة إليها والتخلص من الفضلات ، وهذه تسمى بعملية الهضم .
- تشترك فى عملية الهضم أعضاء رئيسية هى الفم والمعدة والكبد والبنكرياس والأمعاء (الدقيقة والغليظة) .

- يساعد إفرازات تأتى من غدد كثيرة كالغدد اللعابية فى الفم التى تساعد على تحول الطعام مع المضغ إلى كرة مهروسة معدة للبلع ، وهى بداية عملية الهضم ، وعند بلع الطعام يحمل عبر المريء بطريقة نظامية إلى أسفل تجاه المعدة بواسطة سلسلة من الحركات تسمى الحركات الدودية العضلية .

- وفى المعدة تطحن عضلاتها الطعام وتخضه ، فى حين تفرز غددها أحماضاً هضمية أكثر قوة من اللعاب تجعل المواد الزلالية قابلة للهضم .

- وتستمر هذه العملية (الخض) فى المعدة ثلاث ساعات أو أربعاً .. وهى الفترة التى تستغرقها حتى نجوع من جديد .

- وفى الأمعاء تتم المرحلة الأخيرة من الهضم حيث يوزع الطعام بعد (هرسه ودهكه) على جميع الجسم عن طريق الدم .

- الأمعاء عبارة عن أنبوبة طويلة تبلغ خمسة أو ستة أمثال طول جسمك وهى لفائف تبتدئ عند الفتحة السفلى للمعدة ، ومبطنة بالمعدة بنسيج عضلى

يتقلص ويتمدد بصفة مستمرة .

- تتدفق الإفرازات من جدران الأمعاء (الاثنى عشر) كما تتدفق الصفراء من الكبد والعصارة البنكرياسية من البنكرياس في المنطقة ذاتها وعلى طول رحلة تحرك الطعام إلى الأمام بطريقة شريطية تستخلص المواد الكيماوية المفيدة من الطعام ، وتشحن على الفور عبر شبكة المياه الشاسعة في الجسم أو الشرايين إلى أنسجة الجسم الجائعة التي في الانتظار .
- تدخل بقايا الطعام إلى القولون حيث تلفظ خارج الجسم .

سابعاً : الكبد والكليتان :

- تلعب الغدد دوراً هاماً في عملية الهضم وأكبر هذه الغدد هي الكبد .
- تقدم الكبد خدمة خطيرة للجسم فهي تساعد عملية الهضم بأن تفرز مادة تسمى بالصفراء تحتزن في كيس صغير .

- عملية تحطيم الطعام التي ابتدأت في الفم والمعدة تستمر في الأمعاء بمساعدة الصفراء وعصارة غدة أخرى هي البنكرياس حيث تتدفق الصفراء وعصارة البنكرياس عن طريق قناة مشتركة إلى (الاثنى عشر) .

- ترقب الكبد كذلك تيار الدم عن كثب وتخلصه من أية سموم يكون قد امتصها من القناة الهضمية وأى زيادة في السكر يتجهها الجسم تحتزن لتستعملها الكبد مستقبلاً .

- باختزان الكبد أية كمية زائدة من الدم قد تغمر القلب تجعل القلب لا يتحمل أكثر من طاقته أبداً .

- ترسل الأحماض الضارة في الطعام إلى الكليتين عن طريق الدم ويفصل

الماء والأملاح والفضلات الزلالية من الدم بوساطة الكليتين عن طريق خلايا تقوم بمهمة المصفاة .

- تصب الأحماض الضارة بوساطة أنبوية فى مستودع يسمى بالمثانة التى تفرغ بدورها عن طريق أنبوية أخرى - تسمى قناة مجرى البول - إلى خارج الجسم .

ثامنا : الجلد :

- الجلد يكسو الجسم ويساعد على تنظيم حرارة الجسم بوساطة فتحاته والغدد العرقية التى به ، وهناك الشعر والأظفار التى تقوم أيضا بمهام عملية وجالية .

* * *

إن جسم الإنسان هو أبداع ما يمكن أن نعرف من آلات تؤدي عديد الأعمال .. ولكنها آلة عجيبة تحمل البذرة التى تعيد إنتاج نفسها بوساطتها . إنها أكثر الآلات كمالا على الإطلاق وهى جسم الإنسان .

* * *

ولكن مهلا عزيزى القارئ ..
فإننا لم ننته بعد .. فإن الإنسان أحسن من أن يكون مجرد آلة عجيبة .
فالإنسان يحب .. ويكره .. ويريد .. ويقسو .. ويرحم .. ويعلم ..
ويجهل .. ويؤمن .. ويكفر ... إلخ .
وهذه الهبات الروحية تجعل الإنسان فوق كل المخلوقات الأخرى .
وهذا هو موضوع الكتابين القادمين . (حقيقة الروح وحقيقة النفس) .

« طفل الأنابيب » ورأى علماء الإسلام

طالعنا العام الميلادى ١٩٧٨ بخطوة علمية جريئة هى حصاد مقدمات
معملية طويلة ومعقدة حين نشر على العالم نبأ طفلة الأنابيب التى أمكن
العلماء - بإذن الله - أن يحملوها من بطن أمها التى لا يكمل جنين فى
رحمها . لتتزل ضيفة فى فراشها الوثير المجهز فى المخابر والأنابيب حتى تستوى
مخلوقاً مكتمل صفات الخلق ..

وقد أثارت تلك التجربة ضجة عالية ومناقشات طويلة بين كافة مستويات
العقول وأصحاب رأى من الأطباء والعلماء الباحثين ورجال الدين وغيرهم .
وقد نبه بابا الغرب إلى تحريم ذلك فى الدين المسيحى فى حين طالعنا آراء رجال
الدين من علماء المسلمين إلى أن الإسلام لا يحرم إلا أن تكون نطفة الذكر لرجل
غير الزوج أما إذا اجتمع ماء الزوج بماء الزوجة بقصد الإنجاب الشرعى فهو أمر
لا يحرمه الدين خاصة إذا كان رحم الأم مكاناً غير صالح لحضانة الجنين ،
فالإسلام يحض على الأخذ بالأسباب فإذا ما كانت المقدمات شرعية فإن النتائج
شرعية وما الأنابيب إلا وسيلة وسيطة بين المقدمة الشرعية والنتيجة المرغوب فيها
من الزوجين . كذا رأى الإسلام فى الإخصاب الصناعى إذا كانت النطفة
للزوج . أما إذا كانت النطفة لغير الزوج فهو فى مقام الزنى .

وفى ذلك دليل لمن يعتبر أن الإسلام هو دين كل عصر وكل مصر ، وأن
التقدمية من أبرز سمات هذا الدين الحنيف القيم الذى يؤكد العلم فى كل مجالاته
أنه دين الحياة وأنه جاء هدى ورحمة للعالمين .

البَابُ الْخَامِسُ

هذا الإنسان ملاك أو شيطان؟

(إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً)

(الإنسان)

هذا الإنسان ملاك أو شيطان

اختص الله الملائكة بصفة الطاعة وعدم عصيانه فخلقهم لهذه المهمة (لا يعصون الله ما أمرهم ..) واختص سائر مخلوقاته بتسخيرها جميعاً لنفع الإنسان واستفادته بها في كافة شئونه وأغراضه ، واختص الإنسان بحرية الفكر والإرادة والتمييز وحمل الأمانة .. فكان ما كان من شأن الإنسان يرتقى فيكون خليفة الله في أرضه .. وعبد الرحمن الرباني السالك دربه .. وينحدر فيرتد أسفل سافلين ومأساة الإنسان أنه معقد التركيب ، فالجسد تتصارع فيه شهوات الغضب والجنس والبطن .. والنفس توسوس بالهواجس والحقد والحسد وكل ما هو سوء . والعقل يلوم ويصحح ثم ينحرف فيخطط لكل الشرور .. والروح ذلك الشيء الرباني اللطيف يتربع به إلى الكمال والجمال .. والإنسان بين غضبه وشهوته ووساوسه ممزق بأمراضه وشوائبه ، والإنسان بصحة عقله وسمو روحه متفوق على الملائكة .. وهو بين تمزقه وتفوقه يتأرجح إلى أعلى وإلى أسفل مشدوداً بروحه ورأسه إلى السموات ومشدوداً من جسده ونفسه إلى أعماق الأرض .. فإذا تغلبت روحه وعقله كان ملاكاً ، وإذا انتصر جسده ونفسه الأمارة بالسوء كان شيطاناً .

تقول صومحبات يوسف كما يخبرنا الله عنه (ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم) ثم ينحدر الإنسان فيقول سبحانه وتعالى عنه .. (أولئك كالأنعام بل هم أضل) .

فما هي تلك الآفات والعلل التي تجعل الملاك أضل من الأنعام ؟ وكيف تكون مواصفات الإنسان الكامل ؟

يقول بعض العلماء : (١)

ما من عضو من الأعضاء ولا حاسة من الحواس إلا يمكن الاستعانة بها عن طريق الوصول إلى الله تعالى ، فمن استعمله فيه فقد فاز ، ومن عدل عنه فقد ضل ضلالاً مبيناً . ذلك أنه عطل جملة هذه الأعضاء أو استعملها ، لكن في مراعاة أعدائه وهي الشهوة والغضب وسائر الحظوظ العاجلة أو في عارة طريقه دون منزله ، إذ الدنيا طريقه التي عليها عبوره ووطنه ومستقره الآخرة . ولقد اصطحب الإنسان في خلقته وتركيبه أربع شوائب فلذلك تراه قد اجتمع عليه أربعة أنواع من الأوصاف ، وهي الصفات السبعية والبهيمية والشيطانية والربانية :

فهو من حيث سلط عليه الغضب يعمل أعمال السباع من العداوة والبغضاء والتهمج ، وهو من حيث سلطت عليه الشهوة يتعاطى أفعال البهائم من الشره والحرص وما يدخل تحت هذا الوصف - وهو من حيث إنه في نفسه أمر رباني فإنه يدعى لنفسه الربوبية فيحب الاستيلاء والاستعلاء والتخصص والاستبداد بالأموال كلها ، بل يدعى لنفسه العلم والمعرفة والإحاطة .

وبالجملة كل ما له اتصال بصفات الربوبية فإنه يدعيه ويحرص عليه ، ومن حيث إنه يختص بالميز عن البهائم مع مشاركته لها في الشهوة والغضب حصلت فيه شيطانية فصار شريراً يستعمل الميز في استنباط وجوه الشر ، ويتوصل إلى

(١) الشيخ محمد الفقي في كتابه النفس أمراضها وعلاجها - في الشريعة الإسلامية - مكتبة صحيح

الأغراض بالمكر والحيلة والخداع ، ويظهر الشر في معرض الخير وهذه أخلاق الشياطين .

فأما الصفات التي تتولد من طاقة الشهوة فيصدر عنها صفة الوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والعبث والمجون والحرص والجشع والملق والحقد والحسد والشامة وغيرها مما يلحق بها ..

وأما طاعة الغضب فيتولد عنها صفة التهور والبذالة والبذخ والصلف والتكبر والعجب والاستهزاء والاستخفاف ، وتحقير الخلق وإرادة الشر وشهوة الظلم وغيرها مما تنطبق عليه صفاتها .

وأما طاعة الشيطان بطاعة الشهوة والغضب فيحصل منها صفة المكر والخداع والحيلة والدهاء والجراءة والتلبس والغش والخب والخنا وأمثالها مما يجري عليه حكمها .

لذا فطاعة الله تعالى إنما تكون بمخالفة الشهوات .. فمن أقبل على المعاصي اسود قلبه ومن اتبع السيئة الحسنة ونحاً أثرها لم يظلم قلبه ولكنه ينقص نوره كالمرآة ، التي يتنفس فيها ثم تمسح ويعود فيتتنفس فيها ثم تمسح فإنها لا تخلو عن كدورة .

يقول عليه السلام :

القلوب أربعة : « قلب أجرد فيه سراج يزهر ، فذلك قلب المؤمن ، وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق ، وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق ، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها القيح والصدید فأى المادتين غلبت عليه حكم له بها .. وفي رواية ذهب به » .

وقال ﷺ :

« في القلب لثان لمة من الملك إيعاد بالخير ، وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله تعالى وليحمده على ذلك .. ولة من العدو إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهى عن الخير ، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم . » ثم تلا قوله تعالى : (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا) .. الآية .

قال الحسن البصري : إنما هما همان يحولان بالقلب ، هم من الله تعالى وهم من العدو ، فرحم الله عبداً وقف عندهم ، فما كان من الله تعالى أمضاه وما كان من عدوه جاهدته .

ولتجاذب القلب بين هذين المسلطين قال رسول الله ﷺ : « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » .

وقال ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وله شيطان ، قال : وأنت يا رسول الله ؟ قال : وأنا ، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمر إلا بخير » .

ذلك أنه متى غلب على القلب ذكر الدنيا بمقتضيات الهوى ودوافع النفس وجد الشيطان مجالا للوسوسة فقام بها وحقق تلك الأهواء وجال جولانا سريع الوقع بالغ الأثر والتأثير ، وإذا انصرف القلب إلى ذكر الله تعالى ارتحل الشيطان وضاعت به السبل وعز عليه الحال وهنا انفتح الباب فأقبل الملك وألمهم . وقد روى أن محمد بن سليمان الهاشمي كان يملك من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم في كل يوم ، فكتب إلى أهل البصرة وعلمائها في امرأة يتزوجها ، فأجمعوا كلهم على رابعة العدوية فكتب إليها :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فإن الله تعالى قد ملكني من غلة الدنيا

ثمانين ألف درهم في كل يوم ، وليس تمضى الأيام والليالي حتى أتمها مائة ألف وأنا أصير لك مثلها ومثلها فأجيبني . فكتبت إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد : « فإن الزهد في الدنيا راحة القلب والبدن ، والرغبة فيها تورث الهم والحزن ، فإذا أتاك كتابي هذا فهيئ زادك وقدم لمعادك وكن وصى نفسك ، ولا تجعل الرجال أوصياءك فيقتسموا تراثك ، فصم الدهر وليكن فطرك الموت ، وأما أنا فلو أن الله تعالى خولني أمثال الذى خوَّلك وأضعافه، ما سرى أن أشتغل به عن الله طرفة عين».

وهذه إشارة منها إلى أن كل ما يشغل عن الله تعالى نقصان .. وأن الإنسان الكامل هو الذى يرمى حق الله في استخلافه له سبحانه في الأرض .

الإنسان ليس وحده في هذا العالم

خلق الله سبحانه وتعالى الخلق في صور متعددة الخلق والخلق .. فالإنسان من تراب .. ثم من نطفة من منى يمنى .. ، والملائكة من النور .. والجان من مارج من نار .. كذلك فإن الإنسان يتأرجح بين درجات ربانية وينحدر إلى مدارك سفلية شيطانية في حين أن الملائكة (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) وهم متفاوتون فيما سخروا فيه من مهام الخير وميادينه وليس للشر سبيل إليهم وليس لهم سبيل إليه وهم في هذا يختلفون عن الجان الذى يجوز عليه الخير والشر ..

والقرآن يذكر لنا في آياته العديد من المواقف والصفات لعدد من خلق الله من الأرواح الخفية كالجن والملائكة وإبليس .. وهى مخلوقات لم يكده العلم الحديث بكل إمكانياته يحلوها وإن كان القرآن قد سبق العلم في هذا المضمار

عشرات المئات من السنين .. وذلك من إعجاز القرآن وتأكيده أنه من عند الله ..

فالقرآن يؤكد لنا أن الإنسان ليس وحده في هذا العالم فهناك مخلوقات غير مريئة ورد ذكرها في عديد من الآيات وأكدت بحوث الذرة وطاقاتها ومكوناتها .. وجود هذه المخلوقات التي تتكون من مواد غير مريئة للعين البشرية .. لأنها مواد غير تلك التي يتكون منها الإنسان .. فالإنسان يحترق بالنار فينفى ولكن القرآن يؤكد لنا في عبارات موجزة بليغة أن الجان خلق من نار .. وأن الملائكة خلقت من نور .. وأن الشيطان يرانا ولا نراه هو وقيله .. وفي هذه الصفحات القليلة نعرض عجالة في بيان هذه المخلوقات :

(١) الملائكة

والملائكة مخلوقات ربانية خلقت من النور .. وقد يبحثون في صورة البشر فهكذا نعرفهم في قصة إبراهيم وقصة لوط .. وكذا في قصة زكريا ومريم .. غير أن الإنسان وإن رآهم في هيئة البشر فإنه لا يعرف أنهم من الملائكة إلا بعد حين .. فإبراهيم عليه السلام قدم لهم عجلاً حينئذ طعماً لهم ولكنه خاف منهم حين وجد أيديهم لا تصل إلى طعامه .. قالوا : (لا نخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط . وامراته قائمة فضحكك فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب) . (ولما جاءت رسلنا لوطا ساء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عاصيب . وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات) . فخاف على ضيوفه (قال يا قوم هؤلاء بناقى هن أطهر لكم) . ولا تؤذوني في ضيوفي .. ولكن قومه قالوا : (إنك لتعلم ما نريد) .. وهنا فقط تطمئن الملائكة وتخفف روعه .. (قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من

الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيها ما أصابهم) .

كذلك نرى الملائكة في قصة مريم في زى البشر : (فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرًا سويًا) .

كذلك في أمر زكريا الذى نادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب يبشرونه ببيحيى الذى لم يجعل الله له من قبل سمياً والذى يؤتى الحكمة صبياً .. كذلك تدخل الملائكة على داود فيفزع .. وكذلك أيضاً يقوم الملكان هاروت وماروت بتعليم الناس السحر ويقولان لهم إنما نحن فتنه .. وتميز الملائكة بصفة الطاعة لله دون معصية ولهذا يأمرنا الله أن نؤمن بملائكته استكمالاً للإيمان به ، ويعلمنا أن الكفر بها ضلال مبين . والرسول ﷺ يقول : « خلقت الملائكة من نور .. وخلق الجان من مارج من نار » وخلق آدم مما وصف لكم » . وكونهم من النور نزههم عن الوقوع فى الشهوات والمعاصى فهم يسبحون بحمد الله ويقعدسون له .. وهم لا يستكبرون فيسجدون لآدم .. ويعترفون أنه لا علم لهم إلا ما علمهم العليم الحكيم .

وإذا كان من الإنس والجن ذكور وإناث فإن الملائكة من عباد الله وليسوا إناثاً فهم من جنس واحد .

يقول تعالى : (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم سكتب شهداتهم ويسألون) . وعدد الملائكة لا يمكن التحقق منه، ولكن هناك أمرا يشير الرغبة فى المعرفة، ذلك أن لفظ الملائكة تكرر ٦٨ مرة فى القرآن وهو عدد يساوى تماماً عدد مرات ذكر الشيطان .. ذلك برغم أن اللفظين لم يقتربا فى آية واحدة . أما علة المساواة فى الأعداد فالأمر فيه عند الله وحده . وواضح أن رسالة الملائكة خير محض كما أن رسالة إبليس الشر المحض .

(ب) الجان

يقول الله تعالى : (وخلق الجان من مارج من نار) .

ويقول تعالى : (والجان خلقناه من قبل من نار السموم) .

ويقول تعالى : (قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين . قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) .

ويقول سبحانه : (يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة يتزع عنها لباسها ليريها سوءاتها إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) .

ويقول تعالى : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه) .

وتتعدد الآيات التي تذكر الجن مفردا وجماعة وأما .. وتتعدد الصور والمواقف التي يتعرض لها الجن في القرآن .. فهو يرفض السجود لآدم في شخص إبليس .

وهو يأتي لسليمان بعرش بلقيس ملكة سبأ في شخص واحد من الجان .. وهو يستمع إلى القرآن في شخص نفر من الجن .. فمنهم الجن المؤمنون بالله .. ومنهم إبليس اللعين .. يؤيد ذلك : (وأنا منا الصالحون ومنادون ذلك كنا طرائق قدداً) .

وأيضاً (وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً) . فقد خلق الله الجن والإنس ليعبدوه . فمنهم من اهتدى ومنهم من ضل فكان

شيطاناً ويدل على ذلك الآية : (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً) .

وفى تفسير القرطبي : روى جبير بن نفير عن أبي ثعلبة الخشني - واسمه جرثوم - أن رسول الله ﷺ قال : « الجن على ثلاثة أثلاث فثلث لهم أجنحة يطيرون في الهواء - وثلث حيات وكلاب - وثلث يحلون ويظعنون » . وروى أبو الدرداء واسمه عويمر قال : قال رسول الله ﷺ : « خلق الجن ثلاثة فثلث كلاب وحيات وخشاش الأرض وثلث ريح هفافة -- وثلث كبنى آدم لهم الثواب وعليهم العقاب .. وخلق الله الإنس ثلاثة أثلاث : فثلث لهم قلوب لا يفقهون بها وأعين لا يبصرون بها وآذان لا يسمعون بها ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا . وثلث أجسادهم كأجساد بنى آدم وقلوبهم قلوب الشياطين ، وثلث في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله . ويستطيع الجن التمثل في عديد من الصور والهيئات للمخلوقات الحية كالإنسان والحيات والفيران وغيرها . ومنهم الذكور والإناث فهم يتناسلون .. ومنهم أعداد تماثل أعداد بنى البشر حيث تدل الآية : (يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان) . ويتكرر ذكر عبارة (لم يطمئن إنس قبلهم ولا جان) كذلك جاء في النص القرآني : (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن) فكلمة يا معشر تدل على كثرتهم .. وكلمة لم يطمئن تدل على تراوجهم وكلمة برجال تدل على أن منهم رجالا وإناثا .. كذلك فإن مما يدل على تمثيلهم الهيئات قوله ﷺ (

« من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي) .. وهذه القدرة على التمثل هي خارق قدرات الجن كقدرته على لمس السماء حيث تدل الآية : (وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً . وأنا كنا نقعد منها

مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابًا رصداً) ويقول تعالى : (وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم) .

فائدة : فى قصة سليمان دليل على أن الذى عنده علم من البشر المؤمنين يمكن أن يؤيده الله بقدرات تفوق قدرات الجن بتأييد الله له حيث أتى بالعرش قبل أن يرتد رمش العين إليها ذلك الإنس الصالح فى حين أن الجن عرض على سليمان أن يأتى بالعرش فى مدة أطول من ذلك .

(حـ) الشياطين

ذكر الشيطان بلفظه فى القرآن ٦٨ مرة - وشيطاناً مرتين - والشياطين بلفظها ١٧ مرة وشياطينهم مرة واحدة والشيطان هو ذلك المخلوق النارى الجبار المتصف باللعنة والكبر والإضلال والإزلال يعد الفقر ويأمر الفحشاء ويستذل الناس بما كسبوا ويوقع بينهم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويزين للعاصين أعمالهم ويضلهم ضلالاً بعيداً فمن اتخذه ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً . والشيطان كما يكون من الجن يكون من بعض الإنس وهو (الوسواس الخناس . الذى يوسوس فى صدور الناس . من الجنة والناس) .. وقد وسوس لآدم وحواء فأخرجهما مما كانا فيه فى الجنة وأزلهما عنها .. فهو للإنسان عدو مبين وهو لله عصى من الكافرين .. وما من رسول أو نبي تمنى قبل محمد ﷺ إلا ألقى الشيطان فى أمنيه ولكن الله أعان النبي محمداً ﷺ على شيطانه فأسلم ولكنه وسوس لآدم وحواء وموسى وأنسى يونس الحوت وتلت الشياطين على ملك سليمان .. والله تعالى يقول (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن) .

وقد ورد اسم الشيطان (بالألف واللام) فى البيانات الثلاث .. والرأى

الغالب أن كلمة (الشيطان) عبرية ما لم يكن قد سبق اليهود إليها أحد من المشاركة .. والأرجح عند العقاد أن الكلمة أصيلة في اللغة العربية حيث اشتملت اللغة العربية على كل جذر يمكن أن يتفرع منه لفظ الشيطان ففيها مادة (شط - شاط - شوط - شطن) وهي كلمات تحمل معاني البعد والضلال والتلهب والاحتراق .. وهي معان شيطانية .

وقد كان العرب يسمون الثعبان الكبير بالشيطان وذكر اليهود المتأخرون أن الشيطان تمثل لآدم في صورة الحية ويؤخذ من سفر أيوب - وهو عربى باتفاق المؤرخين - وكذا يؤخذ من تاريخ الأدب العربى فى الجاهلية أن العرب قد عرفوا الشيطان فهو ليس مجرد اسم معرب .

وأشهر أسماء الشيطان الأكبر (إبليس) .. (إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) . والإبلاس فى العربية فقد الرجاء وتدليلا على هذا المعنى نقول فى كلامنا « أمل إبليس فى الجنة » أى فقدته الرجاء فيها .. ذلك بعصيان الله حين أمره أن يسجد لآدم .. وجنوده من الإنس والشياطين والمردة من الجن يضلون الناس ويأتونهم من كل اتجاه وبكل الأساليب .. وبعض الشياطين قرناء للناس أما البعض الآخر من القرناء فن الجن الذين ليسوا شياطين .. ويؤكد العلم الحديث أن وسوسة الشيطان للإنسان لا تقف عند حد حتى إنها لتحته على قتل نفسه والقضاء عليها ليس فقط على قتل غيره ، وشيطان الجن أقدر فى الوسوسة من شيطان الإنس (الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس) ولذا جاء متقدماً عليه فى الآية . وواجب الإنسان أن يستعذ الله كلما نزع من الشيطان .. ويقول « ديل كارنيجى » : لماذا لا نتجه إلى الله إذا استشعرنا القلق ؟ ولماذا لا نؤمن بالله ونحن فى أشد الحاجة إلى هذا الإيمان ؟ ولماذا لا نربط أنفسنا بالقوة العظمى المهيمنة على هذا الكون ؟ .

البَابُ السَّادِسُ

الإنسان الكامل

(ولقد كرّمنا بني آدم ...)

(الإسراء)

معجزة ميلاد المسيح عيسى بن مريم^(١)

يقول موريس بوكاي :

إن الأناجيل (كالقرآن) تعطينا نفس المعطيات عن أصول المسيح البيولوجية . إن نمو المسيح في رحم أمه قد حدث خارج قوانين الطبيعة المشتركة بين كل الكائنات البشرية .

فالبويضة التي أنتجها مبيض أمه لم تحتاج للالتقاء بحيوان منوي من أبيه ليشكل جنيناً ثم طفلاً قابلاً للحياة . إن الظاهرة التي تؤدي إلى ميلاد الكائن الحي دون تدخل من العنصر المخصب الذكر ، تسمى بالتلقيح الذاتي Parthenogenesis ويمكن ملاحظة التلقيح الذاتي في عالم الحيوان تحت ظروف معينة ، وتلك حالة حشرات متنوعة وبعض اللاقريات وهي تخص أيضاً حالة جنس متقى من الطيور ولكن هذا استثنائي جداً . وقد أمكن بالتجربة عند بعض الثدييات ، أنثى الأرنب مثلاً ، الحصول على بداية لتطور البويضة إلى حالة جنينية في مرحلة أولية جداً دون إدخال حيوان منوي . ولم يمكن الذهاب إلى أبعد من هذا ، ولا يعرف عند هذه الثدييات أى مثال لتلقيح ذاتي مكتمل لا بالتجربة ولا بالطبع . أما المسيح فهو حالة خاصة . فقد كانت مريم أمه عذراء . وقد احتفظت بعذريتها ولم تلد أطفالاً غير المسيح . إن المسيح استثناء بيولوجي .

(١) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم . موريس بوكاي ص ١٠٤/١٠٥ - ترجمة - الناشر دار المعارف الطبعة الرابعة ١٩٧٧ .

ومن تمام الفائدة أن نقول ^(٢) إن القرآن حين تكلم عن نسب المسيح ذكر لنا أنه (المسيح عيسى بن مريم) ذلك أنه وحيد أمه مريم وليس له أب بيولوجي .. فكان من الضروري أن يكون نسبه من جهة مريم ، أما ما نراه في الأناجيل من نسب المسيح فنرى اختلافاً بين نسبه في إنجيل متى ، ونسبه في إنجيل لوقا ^(٣) وهي مشكلة تتعلق بالمعقولة وبالاتفاق مع المعطيات العلمية . ففي حين يذكر إنجيل متى (حسب الترجمة المسكونية للعهد الجديد) أن أصول عيسى المسيح ابن داود بن إبراهيم تنتهي بأنه بن يوسف رجل مريم التي ولد منها عيسى الذي يدعى المسيح ، وأن عدد الأجيال هو أربعة عشر جيلاً من إبراهيم إلى داود ، وأربعة عشر جيلاً من داود إلى المنفى بابل وأربعة عشر جيلاً من المنفى بابل حتى المسيح ، فإن إنجيل لوقا (٣ - ٢٣ / ٢٨) حسب نفس الترجمة يعطى المسيح نسباً مختلفاً حيث ذكر في نهاية نسب المسيح أنه بن آدم بن الله في حين أن متى لا يذكر أى اسم قبل إبراهيم .

وفي رأينا وبغض النظر عن تلك المشكلة أن الله سبحانه الذى خلق آدم من تراب دون أب أو أم وخلق حواء من آدم دون أم وخلق عيسى بن مريم دون أب هو خالق كل شيء بأمره وخصب مشيئته (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) .

(٢) رأى المؤلف .

(٣) التفصيل في المرجع السابق ص ١٠٦/١٠٧/١٠٨/١٠٩/١١٠ .

ميلاد محمد رسول الله

على ما نقل السهيلي في الروض الأنف أن ميلاد الرسول ﷺ كان بعد خمسين يومًا من عام الفيل في حين ذكر البعض عن (ابن عباس) أن المولد كان يوم الفيل واكتفى البعض بقوله كان عام الفيل .. وكانت أمه (آمنة بنت وهب) بنت سيد بنى زهرة وأفضل فتيات قريش نسبًا وموضعًا ، وأبوه (عبد الله بن عبد المطلب) ابن سيد بنى هاشم (المفتدى) على نحو ذكره بجمده الأعلى إسماعيل .. ذهبت آمنة بغرة النور في عبد الله فلم تترك لغيرها من النساء فيه مأربًا .. وكانت الرؤى قد عاودت (آمنة) في صدر ليلة مقمرة من ليالى ربيع ، وسمعت من يهتف بها من جديد ، أنها توشك أن تضع سيد هذه الأمة ويأمرها أن تقول حين تضعه : « أعينه بالواحد من شر كل حاسد » ثم تسميه محمدًا^(٤) .

وجاءها المخاض في أوان السَّحَر من ليلة الاثنين فأحست ما يشبه الخوف لكنها ما لبثت أن شعرت بنور يغمر دنياها ، ثم بدا لها كأن جمعًا من النساء يحطن بمضجعها ويحنون عليها .. فحسبت من بنات هاشم وما هن سوى أطياف سارية ، فكأنها رأت فيهن (مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وهاجر أم إسماعيل) .. وما كاد نور الفجر ينبثق حتى كانت قد وضعت وليدها .. ومضت ساعة وبعض ساعة وهى لا تفتأ ترنو إلى طلعتة البهية وكيانه اللطيف المشرق ، وتذكر به الحبيب الذى أودعها إياه .. ثم رحل .

(٤) أم النبي - د/بنت الشاطئ - دار الهلال - الطبعة السادسة سنة ١٩٧٢ .

وفي الصباح أرسلت إلى جده (عبد المطلب) تنبئه بمولد حفيده فأقبل مسرعاً ، وقد وعى كل ما أُلقت على سمعه مما رآته وسمعتة حين الوضع .. وحمل عبد المطلب حفيده بين ذراعيه وهو يطوف بالكعبة شاكرًا لله .. ثم رده إلى أمه وعاد لينحر الذبائح ويطعم أهل الحرم وسباع الطير ووحش الفلاة .. وأعتق عمه (عبد العزى بن عبد المطلب ^(٥)) جاريته ثوية الأسلمية حين بشرته بمولده .. وبميلاده ﷺ زیدت السماء حفظاً ورد عنها المردة وذوو النفوس الشيطانية ، ورجمت الجن وتدلّت إليه ﷺ الأنجم الزهرية وخرج معه نور أضواء قصور الشام القيصرية ، وانصدع إيوان كسرى وسقطت أربع وعشر من شرفاته العلوية ، وكسر سرير الملك كسرى وخمدت النيران المعبودة بالممالك الفارسية .. فقد ولد الهدى ونبي الرحمة .. وأقبلت آمنة ترضع الوليد المصطفى ربّما تفد المراضع ولكن لبنها جف بعد أيام فدفعت به إلى ثوية جارية عمه عبد العزى التي أعتقت .. وكانت ثوية قد أرضعت قبله عمه حمزة بن عبد المطلب بلبن ابنها مسروح ^(٦) . ثم لم تمض إلا أيام معدودات حتى وفدت المراضع من بني سعد يعرضن خدماتهن على نساء الطبقة الموسرة من قريش .. فعرض عليهن محمد بن عبد الله فزهدن فيه يتمه . وشق ذلك على آمنة .. ولكن حليلة السعدية عادت تطلبه بعد أن كانت قد انصرفت عنه أول النهار .. ومنذ احتضنته حليلة فتح الله عليها بركات من السماء والأرض حتى كانت محل حسد رفيقاتها ممن كن قد زهدن محمداً .

* * *

(٥) باء عبد العزى بالكنية للمعونة «أبي لب» وتزل فيه قوله تعالى : (تبث بدا أبي لب

وتب ..) السورة

(٦) السيرة الحلبية ١/٨٥ .

ومضى الرضيع المبارك ينمو ويتزعرع في صميم البادية بين قبيلة بني سعد وهي من أعرق قبائل العرب وأفصحها .. وبقيت آمنة تنتظر عودة ابنها بعد فصله .. لكن أوان فطامه كان يدنو رويدًا .. ولعل آمنة همت أن ترسل إلى حليلة في طلب وليدها .. لكن حليلة لم تلبث أن جاءت ومعها العزيز فلم تكذب أمه المتشوقة تراه حتى التزمته معانقة وتشبثت به في حضنها لا تريد له أن يبتعد عن قلبها الخافق .. ولكن حليلة التي سعلت ببركانه وقد أحست بفرحة آمنة به - راحت تحدثها عن جو مكة وكان إذ ذاك مرهق الحر شديد الوطأة - وطلبت إلى آمنة أن تعيد إليها محمدًا الذي تحشى عليه وباء مكة ^(٧) .. وأنكرت آمنة ما سمعته من حليلة .. ونظرت إليها عاتبة . لكن حليلة لم تئس ولم تتراجع بل ألحت في استصحاب الصبي متوسلة إلى والدته بكل ما في أمومتها من حنان وإثارة .. وتجلدت آمنة للموقف الصعب ونظرت كيف أن وليدها بصحة وعافية كسبها من جو البادية فودعت آمنة ولدها للمرة الثانية إثارةً لصحته على لفتها عليه وشوقها إليه ..

باب ما جاء في خلق رسول الله ﷺ ^(٨)

- عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن أنس بن مالك أنه سمعه يقول :
كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل البائن ولا بالقصير ، ولا بالأبيض الأمهق ولا بالآدم ، ولا بالجعد الققط ولا بالسبط ، بعثه الله تعالى على رأس أربعين سنة أقام بمكة عشر سنين وبالمدينة عشر سنين وتوفاه الله على رأس ستين

(٧) السيرة لابن هشام (١/٧١٣) .

(٨) الإنحافات الربانية بشرح الثعالبي للمحمدية للترمذي - تأليف أحمد عبد الجواد الدومي -

التجارية الكبرى - الطبعة الأولى ١٣٨١ هـ .

سنة وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء .

- عن أنس بن مالك قال : كان رسول الله ﷺ ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير ، حسن الجسم ، وكان شعره ليس يجعد ولا سيط ، أسمر اللون ، إذا مشى يتكفأ (كأنه يتمايل يمينه ويسرة) .

- وعن أبي إسحق قال : سمعت البراء بن عازب يقول : كان رسول الله ﷺ رجلاً مربوعاً ، بعيد ما بين المنكبين ، عظيم الجمجمة إلى شحمة أذنيه ، عليه حلة حمراء ما رأيت شيئاً قط أحسن منه . (الجمجمة : ما سقط من شعر الرأس ووصل إلى المنكبين (الكفين) .

دعاء : كان ﷺ كثيراً ما يدعو : « اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي » .

- عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : « لم يكن النبي ﷺ بالطويل ولا بالقصير ، شثن الكفين والقدمين ، ضخم الرأس ، ضخم الكراديس ، طويل المسرة ، إذا مشى تكفأ تكفؤاً كأنما ينحط من صلب ، لم أر قبله ولا بعده مثله .

(شثن : خشنة صلبة عند الحرب لينة ناعمة في السلم - الكراديس : رموس العظام - المسرة : الشعر الدقيق الذي يبتدئ من الصدر وينتهي بالسرة) .

- عن عمر بن عبد الله مولى غفرة قال : حدثني إبراهيم بن محمد من ولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : كان علي إذا وصف رسول الله ﷺ قال : لم يكن رسول الله ﷺ بالطويل الممغط ولا بالقصير المتردد ، وكان ربعة من القوم ، لم يكن بالجعد القطط ولا بالسبط ، كان جعداً رجلاً . ولم يكن بالمطهم ولا بالمكثم ، وكان في وجهه تدوير ، أبيض ، مشوب ، أدعج

العينين ، أهدب الأشفار ، جليل المشاسن والكند ، أجرد ذو مسربة ، شثن الكفين والقدمين إذا مشى تقلع كأنما ينحط من صبيب ، وإذا التفت التفت معا ، بين كتفيه خاتم النبوة ، وهو خاتم النبيين ، أجود الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله ،

وعن الحسن بن علي رضي الله عنه قال : سألت خالي هند بن أبي هالة ، وكان وصافا عن حلية النبي ﷺ ، وأنا أشتى أن يصف لي منها شيئا أتعلق به فقال : كان رسول الله ﷺ فخمًا مفخمًا ، يتلألأ وجهه تلاتلأ القمر ليلة البدر ، أطول من الربوع وأقصر من المشدب ، عظيم الهامة ، رجل الشعر ، إن انفردت عقيقته فرقها ، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه ، إذا هو وفره ، أزهو اللون ، واسع الجبين ، أزج الحواجب ، سوابغ في غير قرن ، بينهما عرق يدره الغضب ، أفنى العرنين ، له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أثم ، كث اللحية ، سهل الخدين ، ضليع الفم ، مفلج الأسنان ، دقيق المسربة ، كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة ، معتدل الخلق ، بادن متماسك سواء البطن والصدر ، عريض الصدر ، بعيد ما بين المنكبين ، ضخم الكراديس ، أنور المتجرد ، موصول ما بين اللبة والسرة ، بشعر يجري كالخط ، عارى الثديين والبطن ما سوى ذلك ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعلى الصدر ، طويل الزندين ، رحب الراحة ، شثن الكفين والقدمين ، سائل الأطراف ، أو قال شائل الأطراف ، خمصان الأخمصين ، مسيح القدمين ينبو عنهما الماء ، إذا زال زال قلعا ، يخطو تكفيا ، ويمشى هونا ، ذريع المشية إذا مشى ، كأنما ينحط من صبيب ، وإذا التفت التفت جميعا ، خافض الطرف ، نظره إلى الأرض ، أطول من نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة ، يسوق أصحابه ، ويبدل من لقي بالسلام .

حديث الرسول ﷺ في وصف خلق بعض الأنبياء

عن جابر بن عبد الله أن رسول الله (ﷺ) قال : عرض على الأنبياء ، فإذا موسى عليه السلام ضرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة ، « قبيلة بين اليمن وقحطان رجالها متوسطون بين الخنفة والسمن » ، ورأيت عيسى بن مريم عليه السلام فإذا أقرب من رأيت به شبهاً عروة بن مسعود ، رجل أرسلته قريش إلى النبي ﷺ يوم الحديبية ثم أسلم ودعا قومه للإسلام فقتلوه وهو أحد الرجلين اللذين قالت فيهما قريش (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) وجاء في وصف مسلم أنه كان آدم كأحسن ما أنت راء من آدم وكان ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس حمام ورأيت إبراهيم عليه السلام فإذا أقرب من رأيت به شبهاً صاحبكم يعني نفسه - ورأيت جبريل عليه السلام فإذا أقرب من رأيت به شبهاً دحية (كان إذا نزل قرية اشتاق الرجال والنساء لرؤيته وكان دحية رسول رسول الله ﷺ إلى هرقل .

* * *

علة خلق الإنسان

يقول تعالى في سورة الذاريات :

(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) (الذاريات)

ويقول القرطبي في تفسير الآية :

قيل : إن هذا خاص فيمن سبق في علم الله أنه يعبد ، فجاء بلفظ العموم ومعناه الخصوص .

المعنى : وما خلقت أهل السعادة من الجن والإنس إلا ليوحدون .
قال القشيري : والآية دخلها التخصيص على القطع لأن المجانين والصبيان
ما أمروا بالعبادة حتى يقال أراد منهم العبادة . وقد قال تعالى : (ولقد ذرأنا
لجهنم كثيرًا من الجن والإنس) (الأعراف) ومن خلق لجهنم لا يكون ممن خلق
للعبادة ، فالآية محمولة على المؤمنين منهم وهو كقوله تعالى : (قالت الأعراب
آمنّا) (الحجرات) وإنما قال فريق منهم . ذكره الضحاك والكلبي والفراء
والقتبي . وفي قراءة عبد الله : (وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا
ليعبدون) وقال على رضى الله عنه : أى وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون
(لآمرهم بالعبادة) واعتمد الزجاج على هذا القول ويدل عليه قوله تعالى :
(وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً) (التوبة) فإن قيل كيف كفروا وقد خلقهم
للإقرار بربوبيته والتذلل لأمره ومشيتته ؟ قيل قد تذللوا لقضائه عليهم لأن قضاءه
جار عليهم لا يقدرّون على الامتناع منه ، وإنما خالفهم من كفر فى العمل بما
أمر به ، فأما التذلل لقضائه فإنه غير ممتنع . وقيل : (إلا ليعبدون) أى إلا
ليقروا لى بالعبادة طوعاً أو كرهاً . رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس .
فأنكره ما يرى فيهم من أثر الصنعة .

قال مجاهد : إلا ليعرفونى ، قال الثعلبي : وهذا قول حسن ، لأنه لو لم
يخلقهم لما عرف وجود توحيده ، ودليل هذا التأويل قوله تعالى : (ولئن سألتهم
من خلقهم ليقولن الله) (لقمان) (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض
ليقولن خلقهن العزيز العليم) (الزخرف) وما أشبه هذا من الآيات . وعن
مجاهد أيضاً : إلا لآمرهم وأنهاهم . وقال زيد بن أسلم : هو ما جبلوا عليه من
الشقوة والسعادة فخلق السعداء من الجن والإنس للعبادة ، وخلق الأشقياء
منهم للمعصية ، وعن الكلبي أيضاً . إلا ليوحدون ، فأما المؤمن فيوحده فى

الشدة والرخاء ، وأما الكافر فيوحده في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء .
يدل عليه قوله تعالى : (وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين)
(لقمان) الآية : وقال عكرمة : إلا ليعبدون ويطيعون فأثيب العابد وأعاقب
الجاحد . وقيل المعنى : إلا لأستعبدهم . والمعنى متقارب ، وأصل العبودية
الخنوع لله .. والتعبد : التمسك .. فعلة خلق الله للإنسان هي أن يكون الجنب
والإنس مسخرين لعبادة الله أى طاعته والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتلك
هي الغاية .. فالله سبحانه لم يخلقهم طلباً لرزق أحد أو طعامه فهو الرزاق
ذو القوة المتين .

الإنسان الكامل^(٩)

ما مهمة الإنسان في هذه الأرض ؟ وما منزلته بين الخلائق التي خلقها الله
عز وجل في هذا الوجود ؟ يقول الله تعالى في سورة الإسراء : (ولقد كرّمنا بنى
آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير
ممن خلقنا تفضيلاً) . وفي سور كثيرة من القرآن الكريم ذكر الله عز وجل أنه
حين خلق الإنسان الأول - وهو آدم أبو البشر - أسكنه الجنة ، وأمر الملائكة
أن يسجدوا له فسجدوا ، إلا إبليس فإنه أبى واستكبر وقال : (أنا خير منه
خلقتني من نار وخلقته من طين) ، فكان جزاؤه أن طرده الله من الجنة ،
وتوعده بالعقاب الشديد ، فخرج منها وهو يضرر العداوة لآدم ، وآلى على نفسه
أن يفسد عليه وعلى بنيه حياته ، وأن يغويهم ويستهيهم بكل أساليب الخداع
والمكر ، حتى ينحرف بهم عن طريق الخير إلى طريق الشر ، ويعدل بهم عن
(٩) من كتاب صور من حياة الرسول - أمين دويدار - دار المعارف - الطبعة الرابعة .

أسباب السعادة إلى أسباب الشقاء ، وتمنى على الله أن يؤخره إلى يوم القيامة ، حتى يؤدي هذه المهمة التي رصد حياته لها ، وعاهد نفسه عليها ، فأجابه الله عز وجل ، إلى ما تمنى ، وقال : (اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً . واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلًا) (١٠) .

وهكذا بلغ الشيطان أمنيته في البقاء ، وأخذ يعمل في الكيد لآدم حتى استطاع أن يخرج من الجنة كما خرج هو منها ، وهبط آدم والشيطان إلى الأرض وكل منهما يضممر العداوة لصاحبه . ماذا كانت مهمة الإنسان في الأرض .. ؟ يقول الله تعالى : (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون) (١١) .

كانت مهمة الإنسان إذن أن يكون خليفة الله في الأرض ، ليقم فيها الحق والعدل ، ويعمرها بالخير والسلام . وكانت مهمة الشيطان أن يصرفه ما استطاع عن بلوغ هذه الغاية . ومنذ ذلك العهد البعيد والصراع بين الإنسان والشيطان قائم في الأرض ، لا يخلو منه مكان ولا زمان ، وهي معركة الخير والشر ، التي أراد الله لها أن تظل دائرة حتى تقوم الساعة .

* * *

قد يقول قائل : ولماذا أراد الله لهذه المعركة أن تدوم في الأرض ، مادام

(١٠) سورة الإسراء ٦٣/٦٥ .

(١١) سورة البقرة : ٣٠ .

سبحانه يريد أن يعمرها بالخير والسلام ؟ ولماذا سلط الشيطان على الإنسان وقد اختاره ليكون خليفته في إقامة الحق والعدل ؟ ولماذا لم يذل له الطريق ويحول بين الشيطان وبينه . حتى يتسنى له أن يصل إلى الغاية التي أرادها له ؟ وإذا كان الشيطان قد سلح بكل قوى الإغواء ليصرف الإنسان عن غايته ، فهل سلح الإنسان بما يقاوم هذه القوى حتى يحقق الغاية من وجوده ؟

* * *

هذه أسئلة قد تدور في الرؤوس وتجري في الخواطر ، وقد يدور غيرها وغيرها حول هذه المشكلة . ولكي نستطيع الجواب عنها ينبغي أن نقف قليلا حتى ننظر في طبيعة الإنسان وفطرته التي فطره الله عليها .

يقول الله تعالى : (الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون^(١٢)) ويقول سبحانه : (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون^(١٣)) .

ومضمون هذا أن الإنسان خلق من عنصرين : عنصر أرضي ، وهو عنصر الطين الذى يشترك فيه مع سائر الخلائق التى تدب على الأرض ، من حيوان وطيرو وحشرات وهوام ، وعنصر سماوى . هو هذه النفخة الروحانية التى كرمه الله

(١٢) سورة السجدة : ٧ - ٩ .

(١٣) سورة البقرة : ٣١ - ٣٣ .

بها ، وأودع فيها سر المعرفة التى امتاز بها الإنسان ، وصار قادرًا على أن يدرك مالا يدرك غيره من الخلائق التى تشاركه الحياة فى الأرض . وهو ما يشير إليه قوله سبحانه : (ثم سواه ونفخ فيه من روحه . وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) . وقوله جل شأنه : (وعلم آدم الأسماء كلها ..) .

فبمقتضى العنصر الأرضى فى الإنسان ركبت فيه الغرائز التى يحتاج إليها الجسم فى نموه وسلامته وصلاحيته للحياة . وهى غرائز يشترك الإنسان والحيوان فى كثير منها : فكلاهما جسم يتركب من عظم ولحم ودماء وعروق وأعصاب وغير ذلك ، وكلاهما يحتاج إلى الغذاء الذى يقيم حياته ، وإلى القوة التى يبق بها نفسه ، وإلى التناسل الذى يحفظ به نوعه ، وكلاهما يندفع بحكم غرائزه إلى السعى فى سبيل قوته . وإلى القتال فى سبيل حياته . وإلى التزواج فى سبيل نوعه . وتحت تأثير هذه الغريزة ينشأ ما يكون فى الإنسان والحيوان من حرص وبطش وشهوة . وما يترتب على كل ذلك من مظاهر الطمع والظلم . والشح والأنانية . والاندفاع مع الشهوة ، والميل مع الهوى .

فالإنسان من هذه الناحية المادية يستوى مع الحيوان فى الاندفاع الغريزى نحو الحياة . ولكن العنصر الروحى فيه يرفعه عن مستوى الحيوان ، ويجعله بحيث يستطيع أن يتحكم فى غرائزه ويهيمن عليها ، وبحيث يملكها ويستخدمها على بصيرة وهدى ، فى كل ما يقيم حياته على الأساس الذى يليق به كإنسان ، فهو لا يندفع مع الغريزة اندفاعاً أعمى كما يندفع الحيوان ، بل يستخدم كل ما وهبه الله من القوى العاقلة فى الهيمنة عليها والانتفاع بها . حتى تؤدي أغراضها فى غير ما ضرر به ولا بالمجتمع الذى يعيش فيه .

وفى الإنسان من هذه القوى قوتان بارزتان هما « العقل والإرادة » فالعقل هو القوة المدركة التى يستطيع الإنسان بها أن يدرك ويعقل ، ويميز الخير من الشر

والنافع من الضار. والإرادة هى القوة العاصمة التى يستطيع بها أن يضبط حركاته وسكناته ، فلا يقدم ولا يحجم ، ولا يفعل ولا يترك ، ولا يتكلم ولا يصمت إلا على هدى العقل وإرشاده ، لا على دفع الغريزة وانطلاقها. فالإنسان بهاتين القوتين ليس عبداً لغرائه ، بل هو ملك عليها ، يحكمها ولا تحكمه ، ويوجهها ولا توجهه ، وهذا فرق ما بينه وبين الحيوان الأعجم . وبمقدار ما يحسن الإنسان من استخدام هاتين القوتين ، يكون الفرق بينه وبين الحيوان .

هذا إلى قوة الثالثة كرم الله بها الإنسان وميزه على غيره : هى « الضمير » .. وهى قوة لها اعتبارها بين قوى الإنسان ، لأنها قوة خيرة ، توجه دائماً إلى الخير وترفع عن الشر ، وتبين على الإنسان فى كل أحواله ، وتراقبه فى كل أفعاله ، وتترفع به إلى الندم إذا وقع فى الإثم ، وتمنع فى إيلائه وتبكيته إذا تمادى فى الغواية . وقلما خلا إنسان من ونخ الضمير مهما كان طبعه .

فهذه القوى الثلاث إنما هى حصون حصن الله بها الإنسان ضد عدوه الشيطان .. فالعقل يادراكه يميز بين الخير والشر ، والضمير بحساسيته يدفع إلى الخير ويزع عن الشر ، والإرادة بقوتها تفعل أو تترك حسبما يوجهها العقل والضمير ، وجميعها قوى خيرة ، لأنها أثر من آثار النفخة الروحية التى كرم الله بها الإنسان . ولا شك أنها أسلحة قوية يستطيع الإنسان بها أن يتحكم فى غرائزه ، ويرسم لها النهج الذى تسير عليه ، حتى تؤدى وظائفها على خير وجه ، كما أنها أجنحة قوية يستطيع بها أن يخلق فى جو السماء .. ولا نقصد بالسماء تلك الكواكب والنجوم ، ولا ذلك اللون الأزرق الذى يعلو رموسنا ، إنما نقصد بالسماء كل أفق من آفاق السموات إلى المثل الأعلى ، وكل معنى كريم من معانى الخير ، وكل خلق عظيم يسبغ على الفرد والجماعة روح السعادة ، من

الصدق والوفاء ، والعدل والأمانة ، والمحبة والإخلاص ، والمروءة والشجاعة ،
والتضحية والإيثار ، والرحمة والحنان ، والعفو والإحسان ، إلى غير ذلك من
كل معنى فاضل تستريح إليه النفس ، ويطمئن إليه الضمير .

هكذا برأ الله الإنسان ، فلم يجعل حياته مادية صرفة كحياة الحيوان ، ولا
روحية صرفة كحياة الملائكة ، بل جعلها مزيجاً من المادة والروح ، ليتلاءم
وجوده من ناحيته المادية مع طبيعة الأرض التي يحيا عليها جسمه ، ومن ناحيته
الروحية مع طبيعة السماء التي تهفو إليها روحه . « فكان له إلى جانب بشريته
ناحية روحية ، تعود عليه بكل خصائص الحياة الكريمة ، وتجعل له في طبيعته
مصدرًا للإلهام الخير وصفات الكمال » .

ولما كانت الخلافة ميدانها الأرض . فقد سخر الله للإنسان كل ما فيها ،
وكل ما يحيط بها من السموات ، ومن الشمس والقمر ، والكواكب
والنجوم ، والرياح والسحاب المسخرين السماء والأرض . ليستخدم مواهبه
في اكتشاف أسرارها ، واستخراج كنوزها ، واستغلال خيراتها ، ويعيش فيها
سيداً كريماً ، يقيم الحق والعدل في أرجائها ، وينشر الخير والسلام في نواحيها ،
ويقمع البغي والعدوان والظلم ، ويؤدى عن الله فيها كل ما يريد لعباده من أمن
وطمأنينة وسلام ..

(الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من
الثمار رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم
الأنهار* . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم
من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها^(١٤)) .

• آدم : للأستاذ البهى الحولى .

(١٤) سورة إبراهيم : ٣٢ ، ٣٤ .

(ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة (١٥)) .

فالله عز وجل لم يترك الإنسان هملاً ، ولم يهبط به إلى الأرض وهو أعزل ، بل سلحه بكل قوى الخير ، كما سلح عدوه الشيطان بكل قوى الشر ، وبين له سنن الكائنات التى تحكمها ، وتضبط خيرها وشرها ، وتنظم نفعها وضرها ، وبث فيه من أسرار الفهم والاستعداد الفطرى ما يكشف به تلك النواميس والسنن .. وجعل له من مواهبه قوى تناسب طبيعة العمل الأرضى البحت ، وأخرى ذات روح إلهية لا تمت إلى الأرض بصلة ، ولا تستمد منطقها من عالم الأرض . وإنما تستمد من نور الله وفضله ، وسبحانه .. فليس فى مواهب المراءى شىء يزيد مثقال ذرة أو ينقص من مقتضيات الوفاء بحقوق الخلافة التى أعده الله لها وكرمه بها . فإن هو أدى الذى عليه ونهض بحتى ما ألقى إليه ، فقد أنصف نفسه ، وكان عندما أراد الله له من كرامة ، وإن أرادها ملهاة ومأكلة وشهوة . وعطل بعض مواهبه دون بعض ، فقد غير خلق الله فيه . وانسلخ مما أراد الله له من الكرامة والخير* . وكان كما يقول سبحانه : (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون) (١٦) .

بكل هذه المواهب والقوى أمد الله الإنسان ، وأعده ليكون أكمل الخلائق

(١٥) سورة لقمان : ٢٠ .

* آدم ، بشىء من التصرف .

(١٦) سورة الأعراف : ١٧٥ - ١٧٧ .

نشأة ، وأرفعها قدرًا ، وأهداها سبيلا . فما على الإنسان - وقد أمد بكل ذلك - إلا أن يلائم بين مواهبه ويوائم بين قواه . حتى يسير بها في الطريق السوى ، وإلا أن يراعى سنن الله في الكائنات ، حتى يحقق بها الخير والنفع لنفسه ولمن حوله ، فإن الله تبارك وتعالى إنما خلق الأشياء كلها لخير الإنسان ونفعه ، ولكنه لم يخلق شيئًا بحيث يكون نفعًا محضًا ولا بحيث يكون ضررًا محضًا ، بل أودعها جميعًا قابليتها للنفع والضرر ، وجعل لكل شيء قدرًا يتحقق به نفعه ويتفنى به ضرره .. فإذا استعمل الشيء فيما خلق من أجله وبالقدر الذى حدد له كان خيرًا ونعمة ، وإن أسى استعماله أو تجوز به مقداره كان شرًا ونقمة . « وأبدأ تكون الحياة من يد الله صحيحة سليمة ، وإنما تفسدها يد الإنسان » .

وهكذا تجرى القاعدة مطردة كما بينها القرآن الكريم : (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ^(١٧)) (من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ^(١٨)) .

وليس من شك في أن الإنسان إذا لام بين مواهبه وقواه ، فسيطر بعقله وإرادته وضميره على غرائز الجسم ، وراعى سنن الله في استخدام الأشياء ، فلن يكون للشيطان عليه من سلطان ، ولكن الشيطان كثيرًا ما يفر به ويستهو به ، وكثيرًا ما يستدرجه ويستنزله حتى يفسد عليه ذوقه ورأيه وتقديره ، ويزين له سوء عمله فيراه حسنًا .. وإنما يأتي الشيطان غريمه من طريق غرائزه ، فلا يزال يثيرها ويستفزها ويهددها حتى تكون أغلب عليه من عقله وضميره وإرادته ،

• العقل المؤمن : للأستاذ عبد المنعم خلاف .

(١٧) سورة النساء . ٧٩ .

(١٨) سورة يونس : ١٠٨

فيندفع معها اندفاع الحيوان . ذلك أن غرائز الإنسان أضعف نواحيه وأوهاها ، لأنها أرضية هابطة ترضى بالتافه من المتاع وبالدون من المنزل ، شأنها في ذلك شأن الغرائز في كل حيوان يدب على الأرض : « أما خصائصه الروحية فلا قبل للشیطان بها ولا سلطان له عليها ، لأنها سر الله ، عز وجل ، في ابن آدم ، وحصنه الذي حصنه به وآواه إليه . ولا يزال المرء في قوة ومنعة ما استعز بهذا السر واحتتمى بهذا الحصن ، فإذا غفل أو تهاون في الركون إليه كان كمن ألقى سلاحه واستسلم لعدوه ، فكان أهون شيء على الشيطان أن يغويه ، لأنه حين ذاك لا يكون إلا في حماية غرائزه . وهي أضعف نواحيه تماسكاً وأكثرها تهالكاً وانهاراً » .

وقديماً أتى الشيطان آدم وحواء من قبل الغريزة ، فعمد إلى غريزة « حب التملك » . وإلى غريزة « حب البقاء » . فاستشارهما في نفسيهما ، وقال : (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين^(١٩)) أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما إلى لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين . قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين^(٢٠)) .. وهكذا لم يستطع الشيطان أن يخذع آدم وحواء إلا من طريق الغرائز ، فلما تنبّهت فيهما

(١٩) ملكين (بفتح اللام) هي القراءة المشهورة ، أى أن تكونا من الملائكة . وهناك قراءة أخرى بكسر اللام ، من الملك وهو الحكم والسلطان ، كقوله تعالى حكايته عن الشيطان (قال : يا آدم . هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟
(٢٠) سورة الأعراف : ٢٠ - ٢٤ .

خصائصهما الروحية أدركهما الندم والألم ، فسارعا بالتوبة والرجوع إلى الله . عز وجل .

ولقد كانت هذه الخصائص كافية وحدها لعصمة الإنسان من غواية الشيطان ، لو أنه اعتصم بها واعتمد عليها في مقاومة عدوه ، ولكن الشيطان محتال خبيث ، « يجرى من ابن آدم مجرى الدم » ، ويتسرب إليه من كل مدخل خفي ، حتى يلبس عليه أمره ، ويعمى عليه وجه الصواب ، فلا يرى الحق حقاً ولا الباطل باطلاً . والله عز وجل ، يريد للإنسان أن يكون أهلاً لما خصه به من الكرامة ويريد له ألا يضل في مناهات الهيمية الحمقاء بعد ما ميزه بكل تلك الخصائص ، ويريد له أن يؤدي حق الخلافة التي هيأه لها ، وأعده لاحتمال تبعاتها ، وهي أمر ليس بالهين ، لأنها خلافة عن الله الذي يقول الحق وهو يهdy السبيل .. والله يريد لخليفته أن يتخلق بأخلاقه ، وأن يتبين الحق واضحاً في كل شيء حتى لا يزل الشيطان عنه . من أجل ذلك تعهده ، عز وجل ، بالتربية منذ كان ، كما يتعهد الوالد ولده العزيز ، حتى ينشئه على أحسن ما يريد له من طباع الخير وكرم الخصال ، (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم . والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً . يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً^(٢١)) .

نعم ، فقد جعل سبحانه يوصى الإنسان منذ نشأته أن يحرص على ما حصنه به من القوى ، وعلى ما رفعه إليه من المتزلة ، وظل في كل مناسبة يحذره من الشيطان أن يغلبه على مواهبه أو يخذله عن منزلته ، كما يحذر الوالد ولده من

(٢١) سورة النساء : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ .

قرين السوء ، ولم يدع فرصة تمر دون أن يكرر له النصيحة ويعيد عليه الوصية ..

حذر منه آدم أباً البشر وهو لا يزال في الجنة ، قال : (يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا تخرجنكما من الجنة فتشقى . إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى^(٢٢)) وحذره منه بعد أن هبط به إلى الأرض ، (قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فيما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) .. وحذر منه بنى آدم ، ذكرهم بما كان من خداعه لأبويهم حتى أخرجها مما كانا فيه ، فقال عز وجل : (يا بنى آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة^(٢٣)) .. (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير^(٢٤)) .

ولم يزل سبكانه يتعهد بنى آدم بالتحذير من غواية الشيطان ، ويتخولهم بالنصح والإرشاد من حين إلى حين ، ويرسل إليهم رسله وأنبياءه ، أمة بعد أمة وجيلاً بعد جيل ، ومعهم الكتب والشرائع ، ليبينوا لهم طريق الحق ويهدوهم سواء السبيل ، وليضربوا لهم المثل بسلوكهم على أن الإنسان يستطيع بما وهبه الله من القوى أن يغالب الشيطان ، وأن يقيم خلافة الله في الأرض على خير وجه ، وأن يحقق فيها كل ما يريد الله من معاني الحق .

فلم تكن مهمة الرسل والأنبياء مقصورة على تبليغ شرائع الله ، بل كانت مهمتهم كذلك أن يكونوا أمثلة عملية في تنفيذها وتطبيقها على أنفسهم ، وأن

(٢٢) سورة طه : ١١٧ - ١١٩ ، ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢٣) سورة الأعراف : ٢٧ .

(٢٤) سورة فاطر : ٦ .

يكونوا قدوة للناس في حشد القوى الإنسانية لإقامة الحق ، وفي مجاهدة الشيطان أن ينحدر بإنسانيتهم إلى درك الحيوانية الهابط . ومن أجل ذلك جعل الله الرسل والأنبياء بشرًا لا ملائكة ، فيهم من الغرائز والمواهب ما في سائر الناس ، ولكنهم كانوا حكماء في استخدامهما ، فلم يقتلوا غرائزهم ولم يمتوتوا شهواتهم ، بل حكموا فيها عقولهم وضمايرهم ، فضبطوها وسيطروا عليها ، وساروا بها على وفق ما أراد الله منها ، ونهجوا بها المنهج الذى بلغ بهم غاية الكمال الروحي ، كما بلغ بهم غاية الكمال الجسماني ، فوضعوا أنفسهم بذلك في المتزلة الكريمة ، وكانوا بما أوتوا من الحكمة خير النماذج للإنسانية الكاملة . (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا وما يذكر إلا أولو الأبواب (٢٥)) .

وإذا كان « المثل الأعلى » - كما يقولون - هو جاع المحاسن والكمالات التي تكون عادة في مختلف الأفراد ، مجردة من شوائب النقص ، بحيث يتكون منها مثال كامل للجنس ... فقد كان الرسل والأنبياء مثلاً علياً للجنس البشري ، ونماذج كاملة ، في كل زمان ومكان أرسلوا فيه ، وكانت مهمتهم أن يعلموا الناس - بأقوالهم وأفعالهم - كيف يستفيدون بما وهبهم الله من القوى في إسعاد الخليقة . وكيف يغالبون قوى الشر التي تريد أن تفسد الحياة في الأرض . (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط (٢٦)) .. (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً (٢٧))

وقد كان كل نبي من أنبياء الله مثلاً أعلى ، وكان قدوة حسنة للذين أرسل

(٢٥) سورة البقرة : ٢٦٩ .

(٢٦) سورة الحديد : ٢٥ .

(٢٧) سورة النساء : ١٦٥ .

إيهم ، وكان يمكن أن يكون قدوة لمن جاء بعده لو عرف تاريخ حياته على الوجه الأكمل ، وأتيحت له كافة الفرص لإظهار الفضائل التي كان يتحلّى بها ، ولكن أصحاب السابقين من الأنبياء لم يسجلوا إلا القليل من أقوالهم ، ولم تنح لبعضهم الفرص الكافية لإظهار فضائلهم وأخلاقهم وأفعالهم ، كما أن الزمان ذهب بآثار الكثير منهم ، فلم تبق لأحد منهم صورة كاملة من سجل حياته ، ولا شخصية تاريخية واضحة المعالم يمكن الاقتداء بها والسير على هداها ..

أما محمد ﷺ فهو الشخصية التاريخية الوحيدة التي وضحت كل معالمها . والتي سجل معاصروها كل أقوالها وأفعالها ، فلم يتركوا منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصوها .. فهو النبي الوحيد الذي يمكن أن يسمى شخصية تاريخية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان ، إذ إن سيرته معروفة منذ نعومة أظفاره إلى أن اختاره الله لجواره ، وسجل حياته كامل غير منقوص ، وسننه القولية والفعلية يتم بعضها بعضاً ، وكأن كل مطلب من مطالب الحياة الإنسانية قد قدر له وعمل حسابه . فكل ما يعرض للإنسان مما دق أو جل يتجلى في مرآة حياته . وهو النبي الوحيد الذي مارس بالفعل كل المبادئ التي كان يلقيها للناس ، ولن تجد في القرآن حكماً أو أمراً لم يعمل به النبي محمد ..

« وإذا كان القرآن الكريم يفصل لنا الأخلاق على اختلاف أنواعها ، فإن حياة النبي محمد تصورها لنا بألوانها الحقيقية . وقد تقلب ﷺ - من لدن كان يتيماً إلى أن صار ملكاً^(٢٨) في جميع مراحل الحياة ، فآرس صروفها ووفى بحقوق المراتب كلها ، وبذلك صار المثل الأعلى للقدوة الكاملة . فقد كان طفلاً

(٢٨) لم يكن رسول الله « ملكاً » بالمعنى المتعارف من كلمة « ملك » وإنما المقصود أنه ﷺ بلغ من سعة الملك وقوة السلطان ما يبلغه الملوك .

وشابًا وشيخاً . وولداً وأخاً وزوجاً . وتاجرًا وملكاً وقاضيًا ، ورجلاً في السراء والضراء .. وكان في كل هذه المراتب على اختلافها هو هو لم يتغير من البداية إلى النهاية . وكان مثال « الإنسان الكامل » ثابتاً على العهد لم يتغير طبعه ولا خلقه ، ولا اختلفت معاملته للناس ، ولا تغير أسلوب معيشته . فإذا كان الرخاء قد أظهر منه السخاء والعفو والشهامة والمروءة ، فإن الشدة قد أظهرت منه الصبر على النائبات والثبات عند الملمات ، والثقة في خالق الأرض والسموات * .
وصدق الله العظيم إذ يقول : (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً^(٢٩)) .

* المثل الأعلى للأنبياء .

(٢٩) سورة الأحزاب : ٢١ .

خاتمة

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، الحمد لله الذى يسر علينا عسير الجهد وأمدنا بالعون والتوفيق ، والعرفان والشكر للسادة المشايخ والعلماء والكتاب والأطباء الذين ندين لهم بمادة هذا الكتاب الذى أتاح لنا التعلم والانتفاع من هذه المراجع القيمة والبحوث النادرة .
والأمل والرجاء أن يكون ما بذلناه من الجهد فى الجمع والتصنيف والتخريج والتلخيص وإعادة الصياغة والترتيب قد عاد على القارئ بالفائدة التى نرجوها له .

والله نسأل أن يكون كتابنا التالى أكثر فائدة وأجل نفعاً .. ففيه نعرض للروح ما هو؟ وصلة الروح بالنفس والعقل .. وفكرة الروح عند الإنسان البدائى - وعند الفراعنة - والبراهمة والهندوس والإغريق وفى الديانات السماوية الثلاثة وعند بوذا وكونفوشيوس وفى الفكر العربى والإسلامى بصفة عامة .. ومراتب تعلقها بالبدن - ودلائل حدوثها وهل سبقت البدن أو لحقت به فى الخلق - وحالتها بعد مفارقتها للبدن . ويمتد الحديث إلى الحياة بعد الموت والاتصال بين أرواح الأحياء والأموات والكلام عن تحضير الأرواح والتناسخ والسحر والكهانة والعرافة والرؤيا وعلم اليازوجة وعلم حساب الحروف .. وغير ذلك مما له اتصال بموضوع الروح . كل ذلك فى إطار دراسة شاملة واعية شائقة العرض .

والله نسأل أن يوفقنا لما فيه الخير والهداية .

المؤلفان

المراجع

- ١ - القرآن الكريم
- ٢ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد قزاد عبد الباقي
- ٣ - تفسير الطبري
- ٤ - تفسير ابن كثير
- ٥ - تفسير الفخر الرازي
- ٦ - تفسير الخازن
- ٧ - تفسير الكشاف .
- ٨ - تفسير القرطبي
- ٩ - تفسير جزء عم : للإمام محمد عبده
- ١٠ - تفسير سورة العلق : م . جمال الدين عياد
- ١١ - صحيح البخاري ومسلم
- ١٢ - مختصر صحيح مسلم : تحقيق ناصر الدين الألباني
- ١٣ - فتح الباري في شرح صحيح البخاري
- ١٤ - عمدة القاري في شرح صحيح البخاري
- ١٥ - شرح صحيح البخاري للكرمانى
- ١٦ - مسند أبي بكر الصديق
- ١٧ - مسند الإمام أبي حنيفة
- ١٨ - مسند الإمام أحمد
- ١٩ - موطأ مالك

- ٢٠- فيض القدير : لمحمد بن عبد الرؤوف المناوى
- ٢١- السيرة الحلبية الجزء الأول
- ٢٢- السيرة لابن هشام الجزء الأول
- ٢٣- الروض الأنف : للسهيلى
- ٢٤- نيل الأوطار : للشوكافى
- ٢٥- الإتحافات الربانية بشرح الشمايل المحمدية : للترمذى
- ٢٦- مقدمة ابن خلدون : (وبهامشه سراج الملوك للطرطوشى)
- ٢٧- حياة محمد : د . محمد حسين هيكل
- ٢٨- محمد رسول الله : د . عبد الحلیم محمود
- ٢٩- صور من حياة الرسول : أمين دويدار
- ٣٠- الإنسان فى القرآن : عباس محمود العقاد
- ٣١- المرأة فى القرآن : عباس محمود العقاد
- ٣٢- موسوعة العلوم الإسلامية : للتهانوى
- ٣٣- أم النبى : د . عائشة عبد الرحمن
- ٣٤- الأوائل : أبى هلال العسكرى
- ٣٥- محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر : علاء الدين على رده السكناوى
- البسنوى
- ٣٦- العقائد الإسلامية : الشيخ سيد سابق
- ٣٧- الإسلام والعقل : د . عبد الحلیم محمود
- ٣٨- عجالة فى تاريخ الأديان : الشيخ محمد بن فتح الله بدران
- ٣٩- الديانات القديمة : الشيخ محمد أبو زهرة
- ٤٠- نفحات القرآن : الشيخ عبد اللطيف السبكى
- ٤١- الأسرة فى التشريع الإسلامى : الشيخ محمد أحمد فرج السنهورى

٤٢ - مقدمة فى أصول النظم الاجتماعية والسياسية : د . أحمد عبد القادر

الجمال

٤٣ - عالم الجن والملائكة : عبد الرزاق نوفل

٤٤ - القوى الخفية : أنيس منصور

٤٥ - الطب للشعب : جماعة من الأطباء - دار الشعب

٤٦ - طبيبك الخاص : مجلة طبية مصرية

٤٧ - مجلة جمعية أمراض الشيخوخة : مجلة طبية أمريكية

كتب مترجمة ومراجع أجنبية

١ - القوى الطبيعية المجهولة : كاميل فلامريون

٢ - مقدمة تاريخ الحضارات الأولى : جوستاف لوبون

٣ - شجرة الحضارة : رالف ليتون

٤ - تكوين العقل الحديث : جون راندل

٥ - أصل الأنواع (النشوء والارتقاء : شارل دارون

٦ - القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم : موريس بوكاي

٧ - عجائب جسم الإنسان : انتونى رافايلى

١٩٨٨ / ٢٥١٠	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-٢٤٠٨-١	الترقيم الدولي

١ / ٨٧ / ٣٧٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذا الكتاب

في أجزاء ثلاثة ، جمع المؤلفان كل ما ورد عن قصة بدء الخلق من الكائنات الكلية قبل آدم ، وكيف وجد الإنسان في هذا العالم ، وما مراحل الخلق الأولى .

كما ناقشنا نظرية دارون ، واقتصرنا بعدئذ على ما ورد في القرآن الكريم فيما يختص بذلك الإنسان وفريته وأساليب حياته المختلفة ، ورأى علماء الإسلام في هذه الأساليب .

والكتاب بهذا مدخل عصرى لبحث مسألة الإنسان المؤمن في حياتنا الحاضرة ، على ضوء من المبادئ الراسخة القويمة من المعتقدات ، وهو يفتح الطريق لمزيد من البحوث في هذا المجال .